اقرأ

الفداء في الإسلام



الدكتور أحمد الشرباصي

دار المعارف بمصر

عدد ممتاز

١٠ قرش



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان





الدكتور أحمد الشرباصي

الفداء في الإسلام

اقرأ ٣١٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٤ – فبراير سنة ١٩٦٩

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

بسم الله الرحمن الرحيم

أَحمد الله تبارك وتعالى ، وأُصلِّى وأُسلم على أَنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأَصحابه وأَتباعه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ؛ وأَستفتح بالذى هو خير « رَبَّنَا عليكَ توكَّلْنا ، وإليكَ أَنَبْنَا ، وإليكَ المَصِير » .

قبس من كتاب الله

[فاسْتَجابَ لَهُمْ ربُّهُم أَنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ منكم مِنْ ذَكَر أَوْ أُنْثَى ، بعضُكم مِنْ بعضٍ . فالَّذِينَ هاجَروا وأُخْرِجوا مِنْ ديارِهِم . وأُوذُوا فى سَبيلى . وقاتَلُوا وقُتِلُوا ، لأُكَفِّرَنَّ عنهم سيِّئاتِهم ، ولأُدْخِلَنَّهم جناتٍ تَجْرِى مِنْ تحتِها الأَنهارُ ، ثواباً من عندِ اللهِ ، واللهُ عندَه حُسْنُ الثواب . لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَروا فى البلادِ ، متاعٌ قليلٌ ؛ ثم مَأْواهُم جهنَّمُ وبِئْسَ المهاد ، لكن الذين اتَّقَوْا ربَّهم لهم جنَّاتٌ تَجْرِى من تَحْتِها الأَنهارُ خالدين فيها ، نُزُلاً من عِندِ الله ، وما عندَ اللهِ خيرٌ للأَبرار]

[سورة آل عمران]

فاتحة

هذا كتاب يأتى فى أوانه ، وأرجو أن تتوثق صلتُه بمكانه وإنسانه .

إننا اليوم أمة لابد لها من اليقين بأن حاضرها يجب أن يكون امتداداً لماضيها ، فى قيمها ومقوماتها ومُثلها ، وأن غدها يجب أن يكون وليداً لحاضرها . ونحن الآن نتعرض لمرحلة حاسمة من مراحل نضالنا وكفاحنا ضد أعدائنا الذين يتربصون بنا الدوائر عن يمين وشمال .

وإذا كان قدَرُ الله العادل قد ألقى علينا بالأمس درساً صارماً من دروس الابتلاء بالنكبات ، وعرّضنا لموقف عصيب من مواقف التمحيص بالشدائد ، فإن العمل الفدائى المؤمن ظل همزةَ وصل مباركة بين ماضى الجهاد وآتيه ؛ واستبان لنا أن أمر هذه الأمة لن يصلح فى حاضرها ، إلا بما صلح به فى ماضيها المشرق الكريم ، من استمساك بعروة الإيمان الوثقى ، وتدرع بدرع اليقين الحصين ، واعتصام بحبل الله القوى المتين ، واجتماع على روح الجهاد حتى الاستشهاد ، والتقاء على بيعة لله صادقة وفيّة ، تباركها يد الله ، ويؤيدها بعونه وهداه :

[وما النصر إلا مِنْ عندِ اللهِ العزيزِ الحكيم] ، [ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ ينصرُه ، إنَّ الله لقوىٌّ عزيز] .

ومع إدراك بصير لهذه الحقائق ، وشعور عميق بحاجتنا إليها ، جرى القلم بصفحات هذا الكتاب : ليكون تذكرة تتفتح لها الآذان الواعية ، وتتلقاها الهمم العالية ، فإذا التذكرة مفتاح لطريق قد يمتد ويطول ، ولكنه يضمن تحقيق الهدف المأمول :

[وما كان اللهُ ليُضيعَ إيمانَكم إنَّ الله بِالناسِ لرءُوفٌ رحيم] .

وقد بدأتُ الكتاب بالحديث عن معنى « الفدائية » ، ومدى شرعيتها فى مواطنها ، والدوافع التى تحرك همم أصحابها إليها ، والفرق بينها وبين غيرها من أعمال أو اتجاهات تعتمد على جوانب من القوة ، أو جوانب من الأخلاق .

ثم استعرضت حديثَ الفدائية فى القرآن الكريم ، وأوردت طائفة من مبادئ الفدائية التى ذكرها ، ليبين أن حياة الحرية والعزة والكرامة لا بد لها من منهج البذل والتضحية والفداء .

ثم صاحبتُ المسيرةَ الفدائية فى ظل القرآن الكريم ، وفى تاريخ الإسلام والمسلمين ، فعرضتُ مجموعة من النماذج الفدائية التى صورها كتاب الله المجيد فى إيجاز وإعجاز ، لكى تتجلى فيها القدوة الطيبة والأسوة الحسنة لأصحاب الاتجاه الفدائى المؤمن فى هذه الحياة . وانتقلت إلى الحديث عن فدائية الرسول وأصحابه ، ثم تابعت الحركات الفدائية التى تألقت فى مراحل التاريخ الإسلامى ، مبيناً أن هذا التاريخ قد حفل بهذه الحركات فى مختلف العصور .

وبعد أن تحدثت عن طائفة من الملامح التى تمتاز بها « الفدائية » أو تحتاج إليها ، انتقلت إلى استعراض فيه لون من التفاصيل لأعمال بطولية ومواقف فدائية ، وقفها أعلام من رجال هذه الأمة ، فاستحقوا أن يدار عنهم الحديث لتكريمهم وإبراز تضحيتهم من ناحية ، ولتجلية هذه المواقف أمام أبصارنا وبصائرنا من ناحية أخرى ، حتى تكون لنا عظة وعبرة وذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين .

ومما يبدو لى أن الحديث فى هذا المجال الرحيب لم يبلغ غايته ، ولذلك يشرئب هذا القلم متطلعاً راجياً أن يعاود مسيرته ، والله المسئول أن ينفع بزاد اليوم ، وأن يوفق لزاد الغد ، «ما ذلك على الله بعزيز .

أحمد الشرباصى

طريق الفداء

« الفداء » . « العمل الفدائى » . « المقاومة الفدائية » . « حركات الفدائيين » . . .

هذه تعبيرات كثر استعمالها وترديدها منذ عشرات من السنين ، بسبب كثرة الحروب غير المتكافئة التى دارت أو تدور بين الأقوياء والضعفاء ، أو بين الأمم الغنية والأمم المستضعفة ، أو بين كتل طاغية متجبرة وكتل نامية ناشئة .

ومع أن هناك أصواتاً خبيثة تعترض على العمل الفدائى أو تستنكره أو تضيق به ، نجد أن الأقوياء والضعفاء على السواء قد أجازوا أعمال الفداء ، فقد استخدم « البوير » العمل الفدائى فى حرب جنوب إفريقية ، من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٠٢ واستخدمته بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية ، واستخدمه المجاهدون فى فلسطين العربية سنة ١٩٤٨ ، واستخدمه كثيرون غير هؤلاء ، وما زالوا يستخدمونه فى الشرق والغرب ، وكان العمل الفدائى الفلسطينى بعد نكبة يونيه سنة ١٩٦٧ هو أبرز الأعمال لاستبقاء روح الإصرار على استرداد المغتصب من الأرض العربية هنا وهناك .

وفرق المقاومة الفدائية هى — كما يقول رجال الحرب — وحدات عسكرية صغيرة ، تتألف من مقاتلين غير خاضعين

لقيود الجيش النظامى ، يقومون بأعمال جريئة فى القتال ، فيهاجمون العدو ، فرادى أو جماعات ، ويستعينون بالتخفى والمباغتة للعدو من حيث لا يحتسب .

و « النزعة الفدائية » هى استعداد المرء للتضحية بالعزيز عليه ، أو النفيس لديه ، حتى ولو كان ذلك روحه التى بين جنبيه ، من أجل حق يؤمن به ، وعقيدة يعتنقها ويخضع لها ، مع علمه بهول الأخطار التى يتعرض لها فى سبيل ذلك .

ومادة « الفداء » فى لغة العرب تدل على جَعْل شىء مكان شىء حمًى له ، تقول : فديته أفديه ؛ كأنك تحميه بنفسك ، أو بشىء يعوّض عنه ، فيقال : فديته بمالى ، وفديته بأبى وأمى ، كأنه اشتراه بما قدّم ، ومن هنا جاءت كلمة « الفدية » ، وهى ما يقى به الإنسان نفسه ، من مال يبذله فى عبادة قصر فيها ، ككفارة اليمين ، أو كفارة الصوم ، أو غيرها .

والفداء أيضاً فَكَاك الأسير ، والمفاداة هى أن تفتكّ الأسيرَ بأسير مثله .

* * *

ولا يدفع إلى الفدائية الصادقة إلا إيمان عميق ويقين وطيد بعقيدة دينية ، أو نزعة وطنية ، أو غيرة على حق أو حرمة أو حرية ، والفدائى الأصيل لا يندفع إلى عمله البطولى لغرض أو مرض ، ولا لمتعة أو منفعة ، ولا لشهرة أو ذكر .

والفدائيون قوم يسوؤهم ما ينزل بوطنهم أو قومهم من ضيم أو احتلال ، فيبيعون أنفسهم لربهم فى سبيل أن يغسلوا عار قومهم عنهم .

ولقد تشبه الفدائية الفروسية من بعض الوجوه ، ولكن لا يسهل علينا أن نقول إن الفروسية كالفدائية . لأن الفروسية مجموعة آداب وأخلاق ، كمعاونة المحتاج ، واحترام المرأة ، ورعاية الجوار ، وحفظ العهد ، والتزام الصدق ، وإتقان ركوب الخيل . وأما الفدائية فتستلزم تلك المجموعة من الأخلاق ، وتزيد عليها أن صاحبها يندفع حاملا روحه على راحته ، ليرد الذل عن أمته ، أو يبيع نفسه رخيصة فى سبيل غايته .

ومثل هذا يمكن أن يقال فى تبيان الفرق بين الفدائية والفتوة ، فقد يكون فى الفتوة الحقيقية أمانة ورحمة وإعطاء ، وتنزه عن الخنا ، واعتصام بالفضيلة والهدى ، وكف للأذى ، وبذل للندى ، وترك للشكوى ، ولكن لا يلزم فى الفتوة أن يندفع صاحبها إلى مواجهة الموت فى ميدان العمل الفدائى .

* * *

وهناك كلمات تستعمل بمعنى كلمة « الفداء » ، مثل كلمة « البذْل » ، وإن كانت كلمة « البذل » تدلُ فى أصلها على « ترك صيانة الشيء » ؛ ولعل السر فى هذا الاستعمال أن الإنسان حين يفدى عقيدته أو أمته بنفسه ، يكون كأنه قد ترك صيانة نفسه ، فقدّمها رخيصة من أجل ما يؤمن به .

وكذلك تستعمل كلمة « البذل » بمعنى الإعطاء ، والفدائى يعطى روحه لتحقيق غايته .

وكذلك تستعمل كلمة : « التضحية » بمعنى الفداء ، والضحية أو الأضحية فى الشرع هى الذبيحة التى يقدمها الإنسان لمقصد دينى ، ولعل استعمال كلمة « التضحية » بمعنى الفداء كان على تشبيه الإنسان الذى يقدم روحه فداء لعقيدته ، بمن يذبح هذه الروح ويجعلها ضحية وفداء ، وعلى هذا جاء قول الله تعالى فى شأن الذبيح إسماعيل: [وفَدَيْنَاهُ بذِبْحٍ عظيم] أى جعلنا هذا المذبوح فداء له ، وخلصناه به من الذبح .

ولا ينبغى أن نفهم من هذا أن العمل الفدائى لا يتحقق إلا بالموت ، لأن هذا العمل ألوان وأنواع ، فالجندى الذى يقذف بنفسه فى أتون الحرب متوقعاً الموت أكثر من توقعه الحياة إنسان فدائى ، سواء أنال الشهادة ، أم نجا وعاد مترقباً جولة فدائية قادمة . والرجل الذى يبذل ماله فى سبيل حق أو خير ، وهو لا يدرى من أين ينفق بعد ذلك إنسان فدائى .

والعالم الذى يبحث بين مخابيره ومناظيره وأدوات بحثه ، لمعرفة دواء ، أو كشف ميكروب ، دون أن يبالى بالأخطار التى يتعرض لها رجل فدائى ، والذى يقذف بنفسه فى صاروخ أو سفينة فضاء ، ليكتشف سرًّا من أسرار الطبيعة يخدم به البشرية وينفعها عن طريقه ، وهو غير متأكد من سلامة عودته ، رجل فدائى .

والذى يجهر بكلمة الحق حين تخرس الألسنة أمام طغيان أو تجبر . دون أن يبالى العاقبة . قاصداً الخير والإصلاح، رجل فدائى ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » .

والطبيب المخلص الذى يعالج المرضى ، ويختلط بهم ، لأن واجبه يقتضيه ذلك ، ويتعرض لألوان من الجراثيم والميكروبات وأسباب العدوى ، ومع ذلك يمضى فى طريقه يكافح الداء ويتطلب البرء ، رجل فدائى . . . وهكذا .

* * *

والقرآن الكريم هو أساس الإسلام ودستوره ، وهذا الكتاب الإلهى المجيد يلفت أبصارنا وبصائرنا إلى وجود التضحية والفداء منذ مطلع الخليقة ، فهو يحدثنا فى سورة المائدة فيقول : [واتْلُ عليهم نَبَأَ ابنَىْ آدمَ بالحق إذ قرَّبا قُرْبانًا فتُقُبِّلَ مِنْ أحدِهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر] . وفى القرْبان هنا معنى التضحية والفداء، لأن القربان هو ما يتقرب به الإنسان إلى الله، وصار فى التعارف اسمًا للنسيكة ، أى الذبيحة، وجمعه قرابين.

كما يحدثنا القرآن الكريم عن ألوان من الفدية فى الدين ، فيحدثنا فى سورة البقرة عن الفدية فى الصوم فيقول : [وعَلى الذين يُطيقونَه فِديَةٌ طعامُ مِسكين]

ويحدثنا فى السورة نفسها عن الفدية فى الحج ، فيقول :
[فمَنْ كان منكم مريضاً أو به أذًى من رأسهِ ففِديةٌ من صيام أو صَدَقةٍ أو نُسُك] .

ويحدثنا عن الفدية فى الطلاق ، فيقول فى السورة نفسها عن الزوجين : [فإن خفتم ألاَّ يقيما حدود الله فلا جناحَ عليهما فيما افتدتْ به] . ويحدثنا عن الفداء فى الحرب ، فيقول في سورة محمد : [فإذا لَقِيتُمُ الذين كفروا فضَرْبَ الرِّقابِ حتى إذا أَثْخَنْتُموهم فشُدُّوا الوَثَاقَ فإما مَنًّا بَعْدُ وإما فداءً حتى تضعَ الحربُ أوزارَها] .

وكأن القرآن الكريم يريد بهذا الحديث المتعدد المواطن أن يشيع فينا جو الفداء وذكر الفداء ، وإذا كان القرآن لم يذكر مادة « التضحية » فإنه أشار إليها بكلمة « النحر » وهو الذبح ، ولا يتحقق الذبح إلا بذبيحة ، وتقديمها تضحية وفداء ، فقال فى سورة الكوثر : [فصلِّ لربِّك وانْحَرْ] ، وجاء فى الحديث الشريف : « إن على كل أهل بيت أضحية كل عام » .

وإذا كان القرآن الكريم قد حث المؤمنين به على البذل والتضحية والفداء فى سبيل الحق والعدل والعزة والكرامة والحرية ،

ووعد بقبول الفداء الصادق المستقيم الخالص : وضمن لأصحابه عاجل الثواب وآجله ، فإنه حذّرنا ألواناً من الفداء لا تجدى ولا تنفع ، لأنها لم تصدر عن إيمان ، ولم تقصد إلى حق ، فقال القرآن فى سورة آل عمران :

[إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وماتوا وهُمْ كفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ من أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْض ذَهَبًا ولو افْتَدَى بِهِ أُولئك لهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ ومَا لَهم من نَاصِرِينَ]

وقال فى سورة المائدة : [إن الذين كفروا او أنَّ لهم ما فى الأَرض جميعاً ومثلَه معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقبِّلَ منهم ولهم عذابٌ أَليم] . وقال فى سورة الحديد عن المنافقين والكافرين يوم القيامة : [فاليومَ لا يُؤْخذُ منكم فديةٌ ولا من الذين كفروا مأْواكم النارُ هى مولاكم وبئسَ المصير] .

وكأن القرآن المجيد حينما حذرنا هذه الألوان التى لا تنفع ولا تشفع من الفداء ، أراد أن نفهم أن الفداء إذا لم يأت فى ميعاده ، ولم يقدّم على وجهه، لم يثمر ثمرته ، وهؤلاء هم الذين كفروا ، ولهوا فى حياتهم ، وبغوا على غيرهم ، يأتون بعد فوات الأوان ، وفى يوم القيامة ، يحاولون أن يقدّموا الفداء ، وليس إلى قبوله من سبيل .

ويزيد القرآن هذا المعنى وضوحاً حينما يحدثنا عن فداء لا يطال ولا ينال ، فهو ميئوس من وقوعه وتحققه ، ومن هنا لا يتحقق شيء من وراء محاولته ، فيقول فى سورة الرعد :

[للَّذين استجابوا لربهم الحُسْنىَ ، والذين لم يستَجِيبُوا له لو أَنَّ لهم ما فى الأَرض جميعاً ومثله معه لافتدَوْا به ، أُولئك لهم سوءُ الحساب ، مأْواهم جهنم ، وبئس المهاد] .

ويقول فى سورة يونس : [ولو أَنَّ لكل نفس ظَلَمت ما فى الأَرضِ لافتدتْ به ، وأَسَرُّوا الندامةَ لما رأَوُا العذابَ وقُضِى بينهم بالقسطِ ، وهم لا يُظلمون] . ويقول فى سورة الزمر : [ولو أَنَّ للذين ظلموا ما فى الأَرضِ جميعاً ومثلَه معه لافتَدَوْا به من سوءِ العذابِ يومَ القيامة ، وبَدَا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون] . ويقول فى سورة المعارج :

[يَوَدُّ المجْرم لو يفتدِى من عذابِ يومئذ ببنيه ، وصاحِبَتِهِ وأَخيه ، وفصيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيه ، ومَنْ فِى الأَرضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجيه ، كلاَّ إنها لَظَى . . . .]

وهكذا يثبِّت القرآن فى قلوبنا وعقولنا أن الفداء المقبول يجب أن يكون عن عقيدة وإيمان ، وأن يكون مضبوط التوقيت والأوان ، وأن الافتداء الخائب المردود هو ما كان مع الكفران ، أو بعد فوات الأوان .

* * *

والقرآن الكريم بعد هذا كلّه هو الكتاب الإلهى المعلّم لدروس التضحية والفداء ، وهو الموجه إلى روح البذل والإقدام ، فهو يجعل الجهاد فريضة مكتوبة ، وركيزة مطلوبة ، من حرص عليها وصدق فيها عزّ ، ومن أهملها أو خادع فيها ذل ؛ فقال فى سورة الحج : [وجاهِدُوا فى الله حقّ جهادِهِ] ، وقال فى سورة العنكبوت : [والذين جاهدوا فينا لنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنا وإن اللهَ لمعَ المحسنين] ، وقال فى سورة آل عمران : [ولا تَهِنُوا ولا تحزنوا وأنتم الأَعْلَوْن إن كنتم مؤمنين] .

وأرشد إلى أن الجهاد يكون ببذل الأموال وتقديم الأنفس فداءً لغاية الجهاد وهدفه ، فأمر عباده المؤمنين بذلك فقال يخاطبهم فى سورة التوبة : [وجاهِدوا بأموالِكم وأنفسِكم فى سبيلِ الله] ، ووصف المؤمنين بأنهم هم الذين [جاهدوا بأموالهم وأنفسهم] أربع مرات ؛ فى سورة الأنفال مرة ، وفى سورة التوبة مرتين ، وفى سورة الحجرات مرة .

وكل بصير بالنفس البشرية يعلم أن الذى يخيف الناس من المسارعة إلى العمل الفدائى هو التهيب من لقاء الموت ، والرهبة من انتهاء الحياة ؛ ولذلك أراد القرآن أن يلفت إلى حقيقة لا ريب فيها ولا معدل عنها ، وهي أن الموت آت آت ،

ولا بد من وقوعه ، ولا وسيلة للتخلص منه. فقال فى سورة الرحمن: [كلُّ مَنْ عليها فانٍ] . وقال فى سورة الواقعة : [نحنُ قدَّرنا بينْكمُ الموتَ] . وكرر قوله : [كلُّ نفس ذائقةُ الموت] ثلاث مرات فى ثلاث سور ، هى آل عمران ، والأنبياء ، والعنكبوت .

وأكَّد أنه لا سبيل إلى الفرار من هذا الموتُ ، فقال فى سورة النساء : [أينما تكَونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة] . وقال فى سورة الأحزاب : [قلْ لنْ ينفعَكم الفرارُ إن فررتم من الموتِ أو القتلِ] . وقال فى سورة الجمعة : [قل إن الموت الذى تَفِرُّون منه فإنه مُلاقيكم] .

وما دام الموت لا بد منه ولا محيد عنه ، فإن الموت فى موطن كريم خير من الموت فى موضع لئيم ، والمتنبي يقول :

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز أن تعيش جبانا

وما دام الأمر كذلك فالأجدر بالإنسان العاقل المؤمن أن ينطلق إلى ساحة الجهاد ، معتمداً على ربه ، واثقاً فى نهاية سعيدة له ، هى النصر أو الشهادة ، غير هيّاب ولا وجل ، فلن يصيبه إلا ما كتبه الله له ، وهو خير على كل حال ، كما قال القرآن فى سورة التوبة للمؤمن الموقن : [قل

لن يصيبَنا إلا ما كتبَ اللهُ لنا . هو مولانا . وعلى اللهِ فليتوكل المؤمنون . قل هل تَرَبَّصُونَ بنا إلا إحْدى الحُسْنَيين ، ونحن نتربَّصُ بكم أن يصيبَكم الله بعذابٍ من عندِه أو بأيدينا ، فتربَّصُوا إنا معكم مُتَرَبصون] .

ويقول فى سورة آل عمران مذكرًا بتقدير الأَجل ، مفضلا ثواب الآخرة — وطريقه الجهاد والفداء — على متاع الدنيا الزائل : [وما كان لنفس أن تموتَ إلا بإذنِ اللهِ كتاباً مُؤَجَّلاً ، ومن يُرِدْ ثوابَ الدنيا نُؤْتِهِ منها ، ومن يُرِدْ ثوابَ الآخرةِ نُؤْتِه منها ، وسنجزِى الشاكرين] .

* * *

والقرآن الكريم يطالب أهله بتبعات الفدائية فى القتال ، فالفدائى لا يليق به ولا يجوز منه أن يفرّ أو يلقى السلاح ، اللهم إلا إذا كان يتأخر ليكرّ ويتقدم ، أو إذا أراد أن يتأخر فى الميدان لينضم إلى جماعة من إخوته فى الجهاد يتقوى بهم ويشد ساعده ، وفيما عدا هاتين الحالتين لا يباح له أن يترك مواجهة عدوه ، حتى يأتى الله بالفتح أو أمر من عنده ؛ وعليه أن يثبت ويقاوم ، ذاكراً ربه ، مستمداً من إيمانه به قوةً تعينه على بلوغ النجاح ، ولذلك يقول القرآن فى سورة التوبة :

[يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتمُ الذين كفروا زَحْفًا فلا

تُوَلُّوهمُ الأَدبارَ ، ومن يُوَلِّهم يومئذٍ دُبُرَه إلا متَحرِّفاً لقتال ، أَو مُتَحَيِّزًا إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأْواه جهنمُ وبئسَ المصير] . ثم يقول فى السورة نفسها : [يا أَيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثْبُتُوا ، واذكروا اللهَ كثيرًا لعلكم تفلحون] .

ويرشد كتابُ الله أهله إلى أن طريق الجهاد والفداء ليس مفروشاً بالورود والرياحين ، وإنما هو طريق شاق ، له متاعبه وتبعاته ، لكنه طريق المجد ، وإذا كان المؤمنون المحقون ينالهم شيء من الألم أو الجراح فى هذا الطريق ، فإن الكافرين المبطلين من أعدائهم ، يصيبهم مثل ذلك ، أو أكثر ، ومع ذلك يصبرون على باطلهم ، فكيف لا يكون المؤمنون أصبر منهم على الحق والرشاد ، ونهاية المؤمنين إلى النعيم ، ونهاية أعدائهم إلى الجحيم ؟ !

يقول الله تعالى لهؤلاء المؤمنين فى سورة النساء : [ولا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ القومِ ، إن تكونوا تَأْلمون فإنهم يَأْلمون كما تأْلمون ، وتَرْجُون من اللهِ ما لا يَرْجون ، وكان الله عليماً حكيماً] . ويقول فى سورة آل عمران : [إن يَمْسَسْكم قَرْحٌ (أى جراحة) فقد مس اليوم قرح مثلُه ،

وتلكَ الأيامُ نداوِلُها بين الناس ، وليعلمَ اللهُ الذين آمنوا ، ويتخِذ منكم شهداء ، واللهُ لا يحب الظالمين] .

وإذا كانت كلمة « الفداء » فى أصل معناها اللغوى تدل على جعل شىء فدية لشىء ، ومقابلا لتحقيقه ، فإن كتاب الله العزيز قد أكد ذلك ، حين صوّر الإقدام المخلص على التضحية والفداء فى سبيل الله تعالى بصورة صفقة مباركة يعقدها الله جل جلاله مع عباده المؤمنين ، الصالحين بيقينهم وعباداتهم وأخلاقهم وفضائلهم لشرف الجهاد ونعمة الاستشهاد ، فقال في سورة التوبة :

[إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنَّةَ ، يقاتِلون فى سبيل الله فيَقتُلون ويُقتَلون ، وعدًا عليه حقًّا فى التوراةِ والإنجيل والقرآن ، ومن أَوْفَى بعهدِهِ من الله ؟ فاستبشروا ببَيْعِكم الذى بايَعْتم به . وذلك هو الفوزُ العظيم ، التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ، وبشِّر المؤمنين] .

ويعود كتاب الله العلى الأعلى إلى تصوير هذه الصفقة الرابحة بصورة أخرى رائعة ، فهو يقصر على المؤمنين الدعوة إلى عقد هذه الصفقة وإرشادهم إليها ، وهو يرسم لهم طريقها ،

ويوضح لهم فيها ثمن السلعة الغالية المعروضة ، كما يوضح لهم جلال هذه السلعة وثمراتها القريبة والبعيدة ، أو العاجلة والآجلة . فيقول فى سورة الصف : [يا أيها الذين آمنوا : هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارةٍ تُنْجيكم من عذاب أليم ؟ تُؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيلِ اللهِ بأموالِكُم وأنفسكُم . ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ، يَغْفِرْ لكم ذنوبَكم ، ويُدْخِلْكُم جناتٍ تجرى من تحتها الأَنهارُ ، ومساكنَ طيبةً فى جناتِ عَدْن ، ذلك الفوزُ العظيم ، وأُخرى تحبونها : نصرٌ من الله وفتحٌ قريب وبشر المؤمنين] .

وهو يعود مرة ثالثة ، فيشير إلى أن العمل الفدائى المخلص مع ثمرته صفقة إلهيةمباركة ، فيها أخْذُ الخالد الباقى الدائم بالفانى الذاهب الزائل ، وفيها الثواب الجزيل ، وفيها اللجوء إلى ولاية الله ونصره ، وهو خير الناصرين ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، وفيها الوعد بالغلبة على حزب الشيطان وأوليائه ، فيقول فى سورة النساء : [فليقاتلْ فى سبيلِ اللهِ الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتلْ فى سبيلِ اللهِ فيُقْتَلْ أو يَغْلب فسوفَ نُؤتِيه أَجْرًا عظيماً ، وما لكم لا تُقاتلون فى سبيلِ اللهِ والمستضْعَفِينَ من الرجالِ والنساءِ والوِلْدان الذين

يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا ، الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا] .

والقرآن يجزم ويؤكد الوعد الإلهى الصادق المحقق للمجاهدين المضحين الباذلين الفادين ، فيقول فى سورة محمد :

[والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم ، يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم] .

ويقول فى سورة آل عمران : [ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون] . ويقول فى السورة نفسها : [فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب] .

مسيرة فدائية

فى ظل القرآن ، وتاريخ الإسلام

إذا كان القرآن المجيد قد تحدث عن الجهاد والفداء حديثاً واسعاً قائماً على الدعوة المؤكدة إلى استشعار روح التضحية ، والتدثر بدروع الثبات والإقدام ، فإنه فى الوقت نفسه قد أعطانا نماذج ،باهرة للذين سبقوا بمواقفهم البطولية الفدائية ، فعرض علينا من هذه النماذج ما قام به إبراهيم عليه السلام من عمل فدائى ، حين سخر من قومه عبدة الأصنام والأوثان ، ووقف — وهو فرد — فى وجه الطغيان الاعتقادى ، والضلال الفكرى ، والسفه الوثنى ، وأقدم على إظهار السخرية بآلهة هؤلاء ، فساءلهم باستخفاف : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؟. فأجابوه إجابة المقلدين لمن سبقوهم تقليداً أعمى ، كأنهم لا عقول عندهم ، ولا شخصية لهم : وجدنا آباءنا لها عابدين .

فجابههم بالرد المقذع الموجع : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

ولم يقف عند هذا الحد من مواجهة الجمع الفاسد الضال ، بل أقدم على عمله البطولى الفدائى ، فحطم هذه الأصنام ، وأبقى صنماً كبيراً بينها علق فى رقبته آلة التحطيم ، وحينما فعل

إبراهيم هذا لم يكن جاهلا ولا غافلا عن الخطر الجسيم الذى يتعرض له بسبب ذلك ، ولكنها نزعة التضحية والفداء لإحقاق الحق وإزهاق الباطل .

وعرف القوم ما حدث ، وعرفوا من أحدثه ، وأحضروه وما زال يبكتهم ويسخر منهم ، وقرروا حكمهم السفيه الباغى :

[قالوا حرِّقوه وانصُروا آلهتكم إن كنتم فاعلين] . ولم يجزع إبراهيم ولم يرجع عن طريقته وعقيدته ، وكان الله معه لأنه آثر أن يكون مع الله :

[قلنا : يا نارُ كونى بردًا وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين ، ونجّيْناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين] .

* * *

ولم يكن هذا العمل الفدائى هو النموذج الوحيد فى حياة إبراهيم ، بل نراه فى ضوء القرآن يعود إلى موقف فدائى آخر . يشاركه فيه ولده إسماعيل ، فقد رأى إبراهيم فى نومه أنه يذبح هذا الابن العزيز الغالى ، ورؤيا الأنبياء جزء من وحى الله تعالى إليهم .

ولم يهب إبراهيم شدةَ الابتلاء ، ولم يتردد فى الإقدام على الفداء ، قال : يا بنى ، إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟ .

ماذا يرى ؟... إنه إسماعيل بن إبراهيم، إنه سلالة أبى الأنبياء وخليل الرحمن، فهو لا يرى إلا أن يُقدم على عمل فدائى يتفق وأصالة منبته وصفاء سريرته ، قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين .

وشرع الفدائيان الجليلان الكريمان فى تنفيذ الوفاء بالفداء ، وأخذا فى أسباب الاستجابة لهذا الابتلاء ، وهنا جاء عون الله ، وتجلت رحمته : [وناديناه أَنْ يا إبراهيمُ ، قد صدَّقتَ الرؤيا ، إنا كذلك نَجزى المحسنين ، إن هذا لَهُوَ البلاءُ المبين ، وفَدَيْناه بذِبْح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلامٌ على إبراهيم ، إنا كذلك نَجْزى المحسنين ، إنّه مِنْ عبادِنا المؤمنين] .

* * *

وهذا نموذج ثالث من نماذج الفداء التى يعرضها القرآن الكريم :

هؤلاء هم سحرة فرعون يستدعيهم ليردوا على معجزة موسى الإلهية ، حين ألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، فيقبلون عليه وهم ما زالوا فى ضلالهم وخبالهم ، ويطمعون فى الأجر المجزى من فرعون إن أفلحوا ، قالوا : أإن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟

وسارع فرعون فأعطى وعده الواسع الفضفاض ، قال لهم : نعم ، وإنكم لمن المقربين .

وبدأ الصراع بين محاولة المخلوق العاجز وقدرة الخالق المسيطر ، فألقى السحرة حبالهم وعصيهم ، وقالوا — من اغترارهم بفرعون ، وانخداعهم بسلطانه — : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . ولكن موسى ألقى عصاه بوحى من الله ، فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق ، وبطل ما كانوا يعملون .

وانتصر موسى ، واندحر سحر الساحرين ، وسطع ضوء الحق ، وامحى تمويه الباطل ، فاستبان للسحرة نورُ الإيمان ، وظهر الطريق المستقيم للعيان .

ولكن فرعون ما زال هناك ، بجنوده وبنوده ، بقهره وفجوره . . .

ليكن ما يكون ، فمن عرف الحق وآمن به لزمه وحرص عليه .

وأقدم السحرة على عملهم الفدائى الذى ردده القرآن وأكده فقال فى سورة الأعرف :

[وأُلْقِيَ السحرةُ ساجدين ، قالوا آمنّا بربِّ العالمين ، ربِّ موسى وهارون ، قال فرعونُ : آمنتم به قبل أن آذنَ لكم ؟ إنَّ هذا لمكرٌ مكرتموه فى المدينة لتُخْرِجُوا منها وأهلَها فسوفَ تعلمون: لأُقَطعنَّ أيديَكم وأرجلَكُم من خلاف ،

ثم لأُصَلِّبَنَّكم أجمعين .

قالوا : إنا إلى ربِّنا مُنقلبون ، وما تَنْقِمُ منَّا إلا أن آمَنَّا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربَّنا أفرغْ علينا صبرًا ، وتَوَفَّنا مسلمين] .

وقال فى سورة طه : [فأُلْقِيَ السَّحرةُ سُجَّدًا ، قالوا : آمنَّا بربِّ هارونَ وموسى . قال : آمنتم له قبل أن آذنَ لكم ؟ إنه لكبيرُكم الذى علَّمكم السحرَ ، فلأُقَطِّعَنَّ أيديَكم وأرجلَكم من خلافٍ ، ولأُصَلِّبَنَّكُم فى جُذوعِ النخل ، ولتعلمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأَبْقَى .

قالوا : لن نُؤْثِرك على ما جاءنا من البيناتِ والذى فَطَرَنا ، فاقْضِ ما أنت قاضٍ ، إنما تقضِى هذه الحياةَ الدنيا ، إنَّا آمنا بربنا ليغفرَ لنا خطايانا ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، واللهُ خيرٌ وأَبقَى] .

وقال فى سورة الشعراء : [فأُلْقِى السحرةُ ساجدين ، قالوا آمنا بربِّ العالمين ، ربِّ موسى وهارون ، قال : آمنتم له قبلَ أن آذنَ لكم ؟ إنه لكبيرُكم الذى علَّمكم

السحرَ ، فلسوفَ تعلمون : لأقطعنَّ أيديَكم وأرجُلَكم من خلاف ، ولأُصلبنَّكم أجمعين .

قالوا : لا ضَيْرَ ، إنَّا إلى ربِّنا منقلبون ، إنا نطمعُ أن يغفرَ لنا ربُّنا خطايانا أنْ كنا أولَ المؤمنين] .

وَىْ ، لكأن القرآن الكريم قد حرص على أن يُبرز — فى ثلاثة مواطن — وسائلَ التعذيب التى هدد بها فرعونُ أولئك الذين أشرق الإيمان فى صدورهم ، ليشير إلى أن الفدائيين المؤمنين لا يذلون ولا يهونون ولا يضعفون، مهما لاقوا من وسائل التعذيب ، بل يظلون أوفياء للفداء ، شرفاء عند الابتلاء ، أقوياء يتحدون جبروت الأعداء . ومهما تكرر الوعيد أمامهم ، فإنهم يلجئون إلى الاعتصام بحبل الله القوى المتين قائلين :

[ربَّنا أفرغْ علينا صبرًا ، وتَوَفَّنا مسلمين] .

[فاقضِ ما أَنْتَ قاضٍ ، إنما تقضى هذه الحياةَ الدُّنيا]

[لا ضَيْرَ ، إنا إلى ربنا منقلبون] .

* * *

وهذا نموذج رابع من نماذج الفدائية التى يعرضها القرآن : هذا ملك جبار ، استبد بقومه ، وطغى عليهم ، وأراد أن

يخرجهم عن دينهم إلى ضلاله وكفره ، فاستمسكوا بالحق ، وقاوموا الباطل ، فأمر السلطان المتجبر جنوده بأن يحفروا أخاديد[١] ، فحفروها على أفواه الطرق ، وأضرموا فيها النيران ، وجعل هذا الجبار يعرض المؤمنين على هذه الأخاديد واحداً بعد الآخر ، فمن ارتد عن دينه عفا عنه ، ومن أصر على إيمانه قذفه فى النار .

فجعل المؤمنون يصرون على روح الفدائية ، ويلاقون الموت فى النار بصبر وثبات ، حتى إن امرأة بينهم ترددت قليلا حين همت بإلقاء نفسها فى النار ، فقال لها ابنها من ورائها : يا أماه قعى ولا تقاعسى ، اصبرى فإنك على الحق ، اثبتى على ما أنت عليه ، فإنما هى غميضة ، امضى ولا تجزعى .

فألقت المرأة نفسها ، وتبعها ولدها . . .

يقول الله تعالى عن ذلك فى سورة البروج : [والسماءِ ذاتِ البروجِ ، واليومِ الموعودِ ، وشاهد ومشهود ، قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ ، النارِ ذاتِ الوَقود ، إذ هم عليها قُعُود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شُهود ، وما نَقَمُوا منهم إلا أن يؤمنوا باللهِ العزيز الحميد ، الذى له ملك السمواتِ والأرضِ ، واللهُ على كل شىء شهيدٌ ، إن الذين فَتَنوا

(١) الأخاديد ، جمع أخدود ، وهو الشق العظيم المستطيل فى الأرض كالخندق .

المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذابُ جهنمَ ولهم عذابُ الحريق] .

* * *

وهذا نموذج خامس يشير إليه كتاب الله المجيد :

إنه موقف أبى بكر الصديق من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حادث الهجرة الجليل . لقد احتمل أبو بكر فى سبيل الإسلام والرسول عليه الصلاة والسلام ما احتمل ، وصبر ما صبر ، وحرص على أن يكون رفيق الرسول فى الهجرة ، وضحى بالمال والسكن ، وترك من ورائه الأهل والولد ، وحمل معه كل ماله ليخدم به الدعوة الإلهية ، وعرّض نفسه للأهوال والمخاطر ، ولم يتردد فى افتداء الرسول بنفسه ، فهو يخاف أن يكون هناك من يطلب الرسول من وراء ، فيمشى خلف الرسول ، ثم يخشى أن يكون هناك رصد يترصد له على الطريق ، فيمشى أمامه ، ثم ينتقل عن يمينه وشماله ، ليفدى الرسول بنفسه إن أصابه سوء ، وحينما هم المهاجران العظيمان بدخول الغار ، سارع أبو بكر بدخوله أولا ليستبرئه للنبى ، فإذا كان فى الغار سوء لاقاه أبو بكر دون الرسول .

وحينما احتواهما الغار ، ولحقهما المطاردون من المشركين ، خاف أبو بكر على الرسول ، وبثه شجونه ، فقال له الرسول مطمئناً : لا تحزن إن الله معنا ، وقد خلـّد القرآن هذا الموقف

فقال : [إلاّ تنصروه فقد نصرَه اللهُ ، إذ أخرجَه الذين كفروا ثانىَ اثنين ، إذ هما فى الغارِ ، إذ يقولُ لصاحبِهِ لا تحزنْ إن الله مَعنا ، فأنزلَ اللهُ سكينتَه عليه ، وأيَّدهُ، بجنودٍ لم تَرَوْها ، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى ، وكلمةُ اللهِ هى العليا ، واللهُ عزيزٌ حكيم] .

* * *

وهذا نموذج سادس :

إنه مؤمن آل فرعون الذى يرى موسى يأتى إلى فرعون بالآيات الإلهية والدلائل الربانية ، فلا يؤمن فرعون ولا يستجيب ، بل يهدد ويتوعد ، ويأمر بقتل المؤمنين واستحياء نسائهم للذل والهوان ، ثم يهم فرعون بقتل موسى نفسه ، وإذا بهذا الرجل المؤمن الذى ذاع وصفه بوصف « مؤمن آل فرعون » يندفع فى نزعة بطولية وفدائية ، ليواجه الطغيان الكافر الفاجر المتنمر ، ويؤيد الإيمان السافر المتألق ، دون أن يبالى بما قد يصيبه من تعذيب أو إزهاق روح .

وأخذ هذا الرجل المؤمن يجاهر بمعارضة فرعون وقومه ، ويهددهم بعذاب الله وعقابه ، أو أن تصيبهم النكبات كما أصابت المجرمين الكافرين من قبلهم ، ويدعوهم إلى اتباع الإيمان وترك الكفران ، ويذكرهم بأن الحياة الدنيا متاع ، وأن

الآخرة هى دار القرار ، وأن الناجى هو من يعمل الصالحات ، وأن الخاسر هو من يعمل السيئات ، وأن طريق الهداية هو طريق العزيز الغفار ، وأن طريق الضلال والهلاك هو طريق الجحود والكفر ، ويقول لهم فى خاتمة ذلك : [فستذكرون ما أقولُ لكم وأفوِّضُ أمرى إلى الله ، إن الله بصيرٌ بالعباد] .

يقول الله فى شأن هذا الموقف فى سورة غافر : [ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعونَ وهامانَ وقارون ، فقالوا : ساحرٌ كذاب ، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا : اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ، واستحيوا نساءهم ، وما كيدُ الكافرين إلا فى ضلال ، وقال فرعون : ذَرُونى أقتلْ موسى وليدعُ ربَّه ، إنى أخافُ أن يبدِّلَ دينكم أو أن يُظهرَ فى الأرضِ الفساد ؛ وقال موسى : إنى عُذْتُ بربى وربِّكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب . وقال رجلٌ مؤمنٌ من آلِ فرعونَ يكتم إيمانَه : أتقتُلون رجلاً أن يقولَ ربِّىَ الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربِّكم ، وإن يَكُ كاذباً فعليه كذبُه ، وإن يكُ صادقاً يُصبكم بعضُ الذى يعدكم ، إنَّ الله لا يهدى من هو مسرفٌ كذاب] .

وبعد أن تذكر الآيات عقب ذلك ما كان من فرعون من عناد واستكبار على النصح ، وما كان من ذلك الرجل المؤمن من تحذير وإنذار ، جاءت العاقبة ، فماذا كانت ؟!!

[فوقاه اللهُ سيئاتِ ما مكروا ، وحاقَ بآلِ فرعون سوءُ العذابِ : النارُ يُعْرَضون عليها غُدُوًّا وعَشِيًّا ، ويومَ تقومُ الساعةُ أَدخِلوا آلَ فِرْعونَ أَشدَّ العذاب » .

* * *

وهذا النموذج يذكرنا بنموذج من واديه ، فهو يشابهه ويلاقيه :

إنه نموذج « حبيب النجار » المؤمن الصالح المصلح الذى يقال له « مؤمن يس » ، والذى كان يعيش فى مدينة أنطاكية ، أو بقربها ، وفى عهده جاء إلى أهل أنطاكية ثلاثة من المرسلين الدعاة إلى الله ، فأساء أهل أنطاكية استقبالهم ، وكذبوهم وجادلوهم أسوأ جدال ، وهددوهم بالرجم والعذاب الأليم ، وفى أيديهم من وسائل الاقتدار المادى ما فيها ، فإذا بحبيب النجار يأتى إليهم مسرعاً ، فى اندفاع فدائى لا يبالى بضرر ولا بخطر ، ويجهر بكلمة الحق ، ويقف من هؤلاء المكذبين موقف المعارضة ، بلا خوف ولا فزع ، مع ما فى هذه المعارضة من أخطار .

ويتحدث القرآن الكريم عن هذا المشهد فى سورة يس فيقول : [وجاء من أقصَى المدينةِ رجلٌ يسعى ، قال :

يا قومِ اتبعوا المرسلين ، اتبعوا مَنْ لا يسألكم أجرًا وهم مهتدون ، وما لِىَ لا أَعْبُدُ الذى فَطَرنى وإليه تُرْجَعُون ، أأتَّخذُ من دُونه آلهةً إن يُرِدْنِ الرحمنُ بضُرٍّ لا تُغنِى عنى شفاعتُهم شيئاً ، ولا يُنْقِذُونِ ، إنى إذَن لَفِى ضلال مبين ، إني آمنت بربكم فاسمعون ، قيل : ادخُل الجنَّةَ ، قال : يا ليتَ قومى يعلمون ، بما غفرَ لى ربى وجعلنى من المُكرَمين ، وما أنزلنا على قومهِ من بعدِه من جُنْدٍ من السماءِ ، وما كنا مُنْزِلين ، إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون] .

* * *

وهذا نموذج سابع يشير إليه التنزيل المجيد :

إن هذا النموذج يتمثل فى تلك الجماعة الرشيدة المجاهدة المؤمنة ، التى سارت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى « غزوة الحديبية » ، وكانوا يريدون من سيرهم أن يدخلوا مكة مسالمين ، وأن يطوفوا بالكعبة بيت الله الحرام . كما كان يباح ذلك لكل عربى ما عدا المسلمين ، ولكن المشركين تعنتوا وعاندوا ، وبدرت منهم بوادر تدل على المكر واللؤم ، وخشى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتطور الموقف إلى صدام وعراك ،

فجمع صحابته من حوله ، وبايعهم على الجهاد والثبات فيه حتى يذوقوا الموت، وينعموا بنعمة الشهادة ، فاندفع المسلمون بروحهم الفدائية المستجيبة ، وبايعوا الرسول على ذلك ، وزكى تاريخ الإسلام ذكرَ هذه البيعة فسماها « بيعة الرضوان » .

وقد مجد القرآن هذا الوفاء ، بل هذا الفداء من المسلمين الصادقين ، فقال عنهم فى سورة الفتح : [إن الذين يُبايعونك إنما يبايعون اللهَ ، يدُ اللهِ فوقَ أيديهم ، فمن نكثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسِه ، ومن أوْفَى بما عاهَدَ عليهُ اللهَ فسَيؤتيه أجرًا عظيمًا] . ويقول فى السورة نفسها : [لقد رَضِىَ اللهُ عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرةِ ، فعلمَ ما فى قلوبهم ، فأنزلَ السكينةَ عليهم ، وأثابهُم فتحاً قريباً ، ومغانمَ كثيرة يأخذونها ، وكان اللهُ عزيزًا حكيمًا] .

* * *

هذه نماذج للفدائية عرضها القرآن الكريم ، أو أشار إليها ، وكل نموذج منها يحتاج إلى تحليل وتفصيل يضيق عنهما هذا المجال .

وهناك للفدائية مسيرة فى تاريخ الإسلام والمسلمين . . .

وقائد هذه المسيرة هو رسول الله عليه الصلاة والسلام الذى تذكرنا سيرته بأكثر من نموذج للفداء ، فهو ابن الذبيحين

إسماعيل وعبد الله ، وكل من هذا الجد وذاك الوالد قد ضرب مثلا للفداء ، فإسماعيل هو — كما عرفنا — الذى قال له أبوه : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، فقال له ولده: يا أبت ، افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين.

و « عبد الله » والد الرسول تروى السيرة عنه فيما ترويه أن والده عبد المطلب نذر لله إن رزقه بعشرة أبناء أن يذبح واحداً منهم عند الكعبة ، وتم لعبد المطلب ما أراد ، فذهب بأبنائه إلى الكعبة ، وأجرى عندها قرعة بين أبنائه ليكون أحدهم فداء كما نذر ، فخرجت القرعة على عبد الله .

ولم يخف عبد الله الموت ، ولكن الناس حالوا بين الوالد وذبح ابنه ، ثم أرشدهم بعض الناس إلى أن يجروا القرعة بين عبد الله وعدد من الإبل ، ويزيدوا فى الإبل ويكرروا إجراء القرعة ، حتى تخرج على الإبل ، واستجاب عبد المطلب لذلك ، فلم تخرج القرعة على الإبل إلا حين بلغت مائة ، وأعادوا القرعة ثلاث مرات ليطمئن عبد المطلب ، فتكرر خروج القرعة على الإبل ، فذبح عبد المطلب الإبل ، ونجا عبد الله بطل هذا الفداء .

والرسول هو بطل الفداء الأول ، وقد رأيناه ليلة الهجرة يقدم على الرحلة الخطيرة المحفوفة بالأهوال والأخطار ، بعد أن تآمرت جموع الشرك على البطش به ، حتى قال القرآن الكريم فى سورة الأنفال : [وإذْ يَمْكُرُ بكَ الذين كفروا

ليُثْبتوك(١) أو يقتلوك أو يُخرجوك ، ويمكرون ويمكرُ اللهُ ، واللهُ خيرُ الماكرين] .

وكذلك رأيناه فى أحرج موقف ، وهو داخل الغار ، والكفار على بابه ، وصاحبه أبو بكر يقول له مشفقاً : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موطئ قدميه لرآنا ، فلا يضطرب الرسول ولا يخاف ، بل يطمئن أبا بكر فى شموخ يقينى فدائى قائلا : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، يا أبا بكر لا تحزن ، إن الله معنا .

وسنراه وهو يضرب القدوة الطيبة والأسوة الحسنة فى مواقفه الفدائية الكثيرة ، ثم سنراه أيضاً وهو يوجه صحابته إلى مواقف التضحية والفداء ، عليه من ربه أفضل صلاة وأتم سلام .

* * *

وهذا على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، يقف من وراء الرسول ، يتلقى منه دروس الفداء ، فيفهمها ويهضمها ويهتدى بنورها ، وعلى هو الذى كان يقول : « والله ما أبالى أدخلت على الموت أو خرج الموت إلىّ » . وكان يقول : « والذى نفس بن أبى طالب بيده لألفُ ضربة بالسيف أهون علىّ من ميتة على الفراش فى غير طاعة الله » . وهو القائل :

« ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا

---

(١) ليثبتوك : ليقيدوك بالأغلال ويحبسوك .

وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا : ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ، ومضياً على اللَّقَم (أى الطريق المعتدل) ، وصبراً على مضض الألم ، وجداً فى جهاد العدو ؛ ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين ، يتخالسان[1] أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كأس المنون : فمرة لنا من عدونا ، ومرة لعدونا منا ، فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت (أى الذل) ، وأنزل علينا النصر حتى استقر الإسلام ملقياً جِرانه[2] ، ومتبوئاً أوطانه » .

والموقف الفدائى البطولى الذى وقفه الإمام علىّ ليلة الهجرة مشهور لا يحتاج إلى إطالة فى عرضه ، حيث نام مكان الرسول وهو يعلم أنه هدف للمتآمرين من المشركين ، ففدى رسولَ الله بنفسه وحياته ، وإن يكن الله تعالى قد كتب له النجاة والسلامة .

وقد قال بعض المفسرين إن قول الله تعالى فى سورة البقرة : [ومِنَ النَّاسِ من يَشْرِى نفسَه ابتغاءَ مرضاةِ الله ، واللهُ رَءُوفٌ بالعباد] نزل فى علىّ رضى الله عنه حين نام على فراش النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة[3] .

---

(١) يتصاولان : أى يحمل كل منهما على الآخر . يتخالسان : كل منهما يطلب اختلاس روح الآخر.

(٢) جران البعير : مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره . وإلقاء الجران كناية عن التمكن . (٣) انظر تفسير القرطبى ، ج ٣ ص ٢١ .

وتمضى مسيرة الفدائية فنجد فريقاً من المؤمنين يتألقون فى طليعتها ، وأولئك هم شهداء غزوة بدر الكبرى ، وهى الغزوة التى قال فى أهلها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم » . ولقد كان أهل بدر قدوة رائعة فى الإقدام على التضحية والفداء ، وكان شهداؤها أروع وأسمى ، ولذلك قال أحمد محرم فى ديوانه « مجد الإسلام » يخاطب هؤلاء :

شهداءَ بدر ، أنتم المثـــل الذى
بلغ المدى ، بعد المدى ، فتنـــاهى
علّمتم الناسَ الـــكفاحَ فأقبلوا
ملء الحـــوادث يدمنون أذاهـــا
أما الفـــداء فقد قضيتم حقّـــه
وجعلتمـــوه شريعـــة نرضاهـــا
من رام تفسير الحيـــاة لقـــومه
فـــدمُ الشهيد يبين عن معناهـــا
لولا الدماء تراق لم تر أمـــة
بلغت من المجد العريق مناهـــا

وينبغى أن نلاحظ هنا ملاحظة ، هى أن الفدائيين الذين تألقوا فى صدر الإسلام أكثرهم قد شهدوا غزوة بدر ، وكذلك نجد أن كثيراً منهم قد شهدوا « بيعة العقبة » ، وأن أكثر

الذين عاشوا بعد غزوة بدر قد حرصوا على شهود الغزوات التالية ، فإن غاب واحد منهم عن غزوة ، فإنما يكون ذلك لعذر أو ضرورة. أو تكليف من الرسول بعمل آخر . . .

وتمضى مسيرة الفدائية خلال التاريخ ، وبعد حين نشهد فيها الفدائى الشجاع عبد الله بن الزبير ، ونرى أمامه فدائية مؤمنة ، هى أقرب الناس إليه ، وهى أمه أسماء ذات النطاقين التى بثت فيه روح الفداء والجهاد حتى الاستشهاد ، وقالت له فيما قالت : « يا بنى ، لا تقبل خطة تخاف على نفسك منها مخافة الموت ، مت كريماً يا بنى » . ولما ذكر لها أنه يخاف التمثيل بجثته بعد استشهاده ، قالت له : « يا بنى ، إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها » ! . . . .

* * *

وتمضى الأيام فى تاريخ الإسلام فنرى من أبنائه طائفة فدائية متميزة ، هى «فرقة الخوارج» .

والخوارج هم أول فرقة إسلامية ، خرجت على الإمام على رضى الله عنه ، وقد عرفوا بالتشدد فى العبادة ، وبالإخلاص لما يعتقدونه ، والدفاع عنه حتى الموت ، وكانت لهم حركات مقاومة فدائية فى زمن الدولة الأموية ، وفى صدر الدولة العباسية . .

ونحن لا نتعرض هنا لآرائهم التى قد يؤخذ منها وقد يرد عليها ، فقد يكون للخوارج عيوبهم وأخطاؤهم وغلوهم ، ولكن

هذا لا يمنع أن نقرر أنه كانت فيهم نزعة فدائية ، ونحن هنا نرصد ظاهرة « الروح الفدائية » عندهم فقط ، ولا شك أن الخوارج كان لهم مذهب يدينون به فى مجال الجهاد والنضال ، وهو مذهب التضحية فى سبيل العقيدة حتى الموت فى ميدان الحرب .

وكانوا يندفعون إلى مواطن الفداء بدافع من وفائهم لاعتقادهم ، وبدافع من عبادتهم ، ولذلك كانوا يجعلون أنفسهم مثلا لرهبان الليل وفرسان النهار ، فيقول ابن جعدة وهو أحد شعرائهم :

فأقبلتُ نحو الله بالله واثقاً
وما كربتى غير الإله بفارج
إلى عصبة أما النهار فإنهم
هم الأُسْد أسْد الخيل عند التهايج
وأما إذا ما الليل جن فإنهم
قيام بأنواح النساء النواشج

وهم فى جهادهم يرون أنهم قد باعوا أنفسهم لربهم مقابل نعيم الجنة ، كما قال القرآن فى سورة التوبة : [إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنة]
ولذلك يقول شاعرهم قطرى بن الفجاءة يصف حالهم فى معركة :

فلو شهدْتنا يوم ذاك وخيلنا تُبيح من الكفار كلّ حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

ويؤكد قطرى هذا المعنى فى موطن آخر فيقول :

فسرْ نحونــا ، تلق الجهاد غنيمـــة
نفدْكَ ابتياعا رابحــاً غير خاسر

ويأتى معاذ بن جون — وهو أحد شعرائهم — فيخاطب زملاءه وهو سجين فيقول :

ألا أيها الشارون ، قد حان لامرئ
شرى نفسه فى الله أن يترحـــلا
فشدوا على القوم العداة ، فما أرى
إقامتكم للذبـــح رأياً مضلـــلا
فياليتنى فيـــكم على ظهر سابـــح
شديد القُصَيْرَى[1] ، دارعاً غير أعزلا
مشيحاً بنصل السيف فى حمس الوغى
يرى الصبر فى بعض المواطن أمثلا
ولو أننى فيكم — وقد قصدوا لكم —
أثرتُ إذن بين الفريقين قسطلا[2]
فياربَّ جمع قد فللتُ ، وغـــارة
شهدت ، وقِرْن قد تركتُ مجندلا

(١) القصيرى : أسفل الأضلاع ، أو آخر ضلع فى الجنب ، وأصل العنق. والسابح : الحصان السريع . (٢) القسطل : الغبار ويراد به غبار المعركة هنا .

ولم تكن الروح الفدائية عند الخوارج مقصورة على الرجال منهم ، بل عرفت طريقها إلى نسائهم ، وهذه مثلا هى « أم حكيم » زوجة قطرى بن الفجاءة ، كانت من أشجع الناس ، وأجملهم وجهاً ، وأحسنهم بالدين تمسكاً ، وكانت مجاهدة فدائية، وكانت تتمنى أن تهيئ لها الأقدار وهى تجاهد بطلا أقوى منها ، يقطع رأسها ، لتنال نعمة الشهادة ، وتستريح من غسل رأسها ودهنه وتمشيط شعره ، فتقول وهى فى حومة الوغى :

أحمل رأساً قد مللت حمله ... وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عنى ثقله ؟

* * *

ومضت المسيرة الفدائية فى طريقها ، يتجمع أفرادها أحياناً ، وتتشعب مسالكهم أحياناً أخرى ، ونرى على طريقها سيف الدولة الحمدانى ، وهو البطل العربى الإسلامى ، مؤسس الدولة الحمدانية فى حلب ، وفى العصر الذى انحلت فيه وحدة الدولة الإسلامية ، وطمع فيها الطامعون من الأعداء ، وكانت حلب على عهده تمثل الخط الأمامى من خطوط الدفاع عن أرض العروبة والإسلام .

ونرى سيف الدولة فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ينظم بعض الفرق الفدائية التى توافرت فى أفرادها صفات الشجاعة والإقدام والتضحية ، وقد دربهم على المغامرة والفداء ،

وكانت هذه الفرق تسمى : « حملات القفز » لأنها كانت تقوم بالقفز من قمة إلى قمة فى براعة ومهارة ، وكانت فى تحركاتها الفدائية هذه تباغت العدو ، وتنزل بجنوده ومحاربيه ضربات رادعة .

وقد أحدثت هذه الفرق كثيراً من الرعب فى معسكرات الأعداء ، وكان هؤلاء الأعداء إذا رووا ما قام به هؤلاء الفدائيون يروونه فى خوف وفزع من جهة ، وفى هيبة وإعجاب من جهة أخرى ، وقد استمرت هذه الفرق تقوم بعملها الفدائى من سنة ٣٣٩ هـ إلى سنة ٣٤٩ هـ (أى من سنة ٩٥٠ م إلى سنة ٩٦٠ م)[١] .

وواصلت المسيرة الفدائية خطواتها على درب التاريخ الإسلامى الطويل ، تبدو أحياناً ، وتستتر أحياناً أخرى ، ونرى على طريقها عهد صلاح الدين الأيوبى ، البطل الإسلامى الفاتح ، فنجد فى هذا العهد جيشين : الأول هو الجيش النظامى الذى يخضع للدولة ، وتلتزم بنفقته وتسليحه وتدريبه والإشراف عليه .

والجيش الآخر هو جيش « المطَّوِّعة » الذى يتكون من المتطوعين للقتال ، الذين يقومون بتسليح أنفسهم ، ويندفعون إلى النضال الفدائى بدافع من دينهم وإيمانهم ، راجين النصر

---

(١) كتاب « سيف الدولة الحمدانى » للدكتور مصطفى الشكعة .

أو الشهادة ، فهم لا يطلبون مغنما ، ولا يتطاعون إلى شهرة ، بل يستجيبون لقول الله تعالى : [انْفِرُوا خِفَافاً وثِقالا وجاهِدوا بأموالِكم وأنفسِكم فى سبيلِ الله ، ذالكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون] .

ولم تكفَّ المسيرةِ الفدائية فى تاريخ الإسلام والمسلمين عن متابعة الخطوات هنا وهناك .

وما يظن بصير أنها تكف عن هذه الخطوات حتى يبلغ الكتاب أجله ، ويقضى الله أمراً كان مفعولا ؛ والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ملامح للفدائية

العمل الفدائى المؤمن خطة لها صفات ولوازم ، وأول هذه اللوازم إباء الضيم ورفض الهزيمة ، لأن الله تعالى يقول : [ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين] ، ويضاف إلى ذلك تفضيل الموت على ذل الحياة ، وكتاب الله تعالى يقول : [يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قِيلَ لكم انْفِرُوا فى سبيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُم إلى الأَرضِ ؟ أَرَضِيتُمْ بالحياةِ الدنيا من الآخرة ؟ فما متاعُ الحياةِ الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، إلا تَنْفِروا يعذِّبْكم عذاباً أليماً ، ويَستبدلْ قوماً غيرَكم ، ولا تَضُروه شيئاً ، واللهُ على كل شىءٍ قديرٌ] .

ومن لوازم العمل الفدائى الثقة بتقدير الأجل وانتهائه ، وهذا يذكرنا بقول الفدائى قطرى بن الفجاءة :

أقول لها وقد طارت شعاعاً
من الأبطال : ويحكِ ، لن تراعى
فإنك لو سألت بقاءَ يوم
على الأجل الذى لك لم تطاعى

فصبراً فى مجال الموت ، صبراً
فما نيل الخلـود بمستطـاع
ولا ثـوب البقاء بثـوب عـز
فيُطْوَى عن أخى الخنع الـيراع
سبيـل الموت غاية كل حى
فداعيـه لأهـل المـوت داع
ومن لا يغتبط يسأم ويهـرم
وتسلمـه المنـون إلى انقطـاع
وما للمـرء خـير فى حيـاة
إذا ما عُـدَّ من سقط المتـاع .

ومن لوازم الفدائية عدم الحرص على الحياة ، وعدم الرهبة من الموت ، لأنه آت على كل حال ، وهذا يذكرنا بقول الشاعر :

بكرت تخوفنى الحتوفَ ، كأننى
أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها : إن المنيـة منهل
لا بد أن أسقى بذاك المنهـل
فاقنىْ حياءك لا أبا لك ، واعلمى
أنى امرؤ سأموت إن لم أُقتل

ومن صفات الفدائى المؤمن الرضا بالتجارة مع الله عز وجل ، وهذا شاعر يقول عن مؤمنى الفدائيين :

يخشون حومات المنون ، وإنها
في الله عند نفوسهم لصغارُ
يمشون في الخطى ، لا يثنيهم
والقوم إذ ركبوا الرماح تِجار

وقد قال عاصم بن الحدثان للفرزدق عن صاحب هذين البيتين : يا فرزدق ، هذا شاعر المؤمنين .

ومن ملامح الروح الفدائية أن صاحبها يرى أن طلب الشهادة يجعله الله باباً للحياة الكريمة في الدنيا ، أو للحياة العظيمة في الآخرة ، ولذلك قال أبو بكر الصديق : « احرص على الموت توهب لك الحياة » . وكأن يزيد بن المهلب قد نظر إلى ذلك الشعار حين قال :

تأخرتُ أستبقي الحياة ، فلم أجد
لنفسي حياةً مثل أن أتقدما

ومما يحتاج إليه العمل الفدائي القدوة المثالية للتضحية ، ولقد رُوي أن عوف بن الحارث قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غزوة بدر : يا رسول الله ، ما يضحك الربَّ من عبده ؟ قال : غمسُه يده في العدو حاسراً . فنزع عوف درعاً كانت عليه ، وقذفها ، ثم أخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قُتل .

والعمل الفدائي يحتاج إلى طول نفَس ، وجميل صبر ، و وطيد احتمال ، ولقد كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول ،

وهو يسير بين الصفوف يذمّر الجنودَ — أى يشجعهم — :
« يا أهل الإسلام ، إن الصبر عز ، وإن الفشل عجز ،
وإن النصر مع الصبر » .

ويقول الشاعر :

بكى صاحبى لما رأى الموت فوقنا
مطلا كإطلال السحاب إذا اكفهرْ
فقلت له : لا تبك عينك ، إنما
يكون غداً حسنُ الثناء لمن صبر !

وهذا عمرو بن الإطنابة يقول :

أبت لى عفتى وأبى بلائى
وأخذى الحمدَ بالثمن الربيح
وإقدامى على المكروه نفسى
وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت :
مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات
وأحمى بعدُ عن عرض صحيح
أبت لى أن أقصّر فى فعالى
وأن أغضى على فعل قبيح

والعمل الفدائى يحتاج إلى كتمان وإسرار ، وكأن رسول الله
صلى الله عليه وسلم كان يعلم صحابته المجاهدين هذا حينما عودهم

على حمل « الكتب المغلقة » منه ، والسير بها إلى مكان يحدده لهم ، ثم يفتحونها هناك ، وينفذون ما فيها من واجبات الكفاح والفداء .

ولقد حدث فى أثناء غزوة الأحزاب أن غدر يهود بنى قريظة بالرسول والمسلمين ، ونقضوا العهد الذى كان بينهم وبين النبي ، وانضموا إلى المشركين فى وقت شديد عصيب ، وشاءت عناية الله أن تفشل حملة الأحزاب ، وتوجه الرسول بعدها إلى تأديب الغدرة الفجرة من بنى قريظة ، وتمكن منهم بعد حصار طال وامتد ، وطلب هؤلاء من الرسول أن يبعث إليهم بالصحابى أبى لبابة ، وكان حليفاً لهم فى الجاهلية ، وكان له بينهم مال وعقار ، فحسبوا أنه سيكون سبب تخفيف عنهم ، ولما وصلهم أبو لبابة أخذوا يسألونه : أيسلمون وينزلون على حكم النبي ؟ . . فقال لهم : نعم ؛ ثم بدرت منه بادرة غير مقصودة ، فأشار بيده إلى حلقه إشارة يُفهم منها أن مصيرهم هو القتل ، ولعله كان قد عرف ذلك من الرسول أو استنتجه ، وهو قصاص عادل من غير شك .

وما كاد أبو لبابة رضي الله عنه يأتى بهذه الإشارة حتى تنبه لنفسه فى خوف وفزع ، وأحس كأنه خان الله ورسوله فى هذه الإشارة ، لأنه كشف شيئاً كان يجب عليه — ولو فى اعتقاده — أن يخفيه ، فعصره الألم والحزن ، وقال : « فوالله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله » .

وظهر الندم على وجهه ، فقال له بعض اليهود : ما لك يا أبا لبابة ؟ . فأجاب : لقد خنت الله ورسوله . وعاد مسرعاً إلى المدينة ، والدموع تسيل من عينيه ، وما زال مسرعاً فى مشيته حتى دخل المسجد ، وربط نفسه فى أحد أعمدته بسلسلة ثقيلة ، وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت ، أو يتوب الله على مما صنعت . وأخذ على نفسه العهد الوثيق ألا يدخل أرض بنى قريظة ما دام حيًّا ، مع أنه قد كان له فيها مال وعقار .

وبلغت القصة مسمع النبي صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : أما لو جاءنى لاستغفرت له ، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه حتى يتوب الله عليه . وجاء الوحى من عند الله عز وجل مؤدبًا ومعلمًا ، فقال : [يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون] .

وظل أبو لبابة مربوطاً فى عمود المسجد عشرين يوماً ، لا تفك قيوده إلا لأداء الصلاة ، ثم يعود إلى القيد من جديد ، حتى نزلت مغفرة الله تعالى له على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل جبريل يخبر الرسول بأن الله جل جلاله قد تاب على أبى لبابة بعد هذا الندم ، وبعد هذا التطهير ، وجاء قوله عز من قائل :

[وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خَلَطُوا عَملاً صالحاً

وآخرَ سيئاً ، عسى اللهُ أن يتوبَ عليهم ، إن الله غفورٌ رحيم]

وانتهت البشرى إلى مسامع أبى لبابة ، فطار لها فرحاً ، وسعد بها كثيراً ، ولكنه ظل فى قيده كما هو ، وأراد بعض الصحابة أن يفكه من القيد فأبى ذلك ، وقال : والله لا يفكنى من قيدى إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكأنه كان يريد بذلك أن يوثّق توبته ، وأن يكون فك الرسول لقيده تأكيداً لغفران الله له وعفوه عنه .

ومحيت الهفوة من سجل أبى لبابة ، بفضل الله ورحمته ، وواصل حياته مجاهداً مستقيماً على الطريق ، وفيًّا بعهده لا يخون ولا يهون .

إنه لدرس بليغ . فهذا رجل يواصل جهاده فى سبيل الله ، ويبذل من نفسه وماله فى سبيل دينه وهداه ، ثم تفلت منه إشارة لم يتعمدها ، ولم يترصد لإتيانها ، ولم يصر عليها ، ومع ذلك ارتعدت فرائصه ، وارتجفت أوصاله ، وخيل إليه أن الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت ، وأيقن أنه لا ملجأ له من عذاب الله إلا عفو الله ورحمته ، فأخذ نفسه بذلك العتاب الصارم والتأديب الحازم ، حتى تنزلت عليه توبة الرحمن الرحيم .

* * *

ومن لوازم العمل الفدائى المؤمن إنكار الذات ، وإحياء الجندية المجهولة ، والعمل الصموت بلا مباهاة أو مفاخرة ،

ومن أروع الأمثلة للجندية المجهولة ما أوردته فى كتابى « واجب الشاب العربى » ، وهو أن مسلمة بن عبد الملك كان أميراً على جيش من جيوش المسلمين ، وكان يحاصر حصناً من الحصون استعصى عليهم فلم يفتحوه ، فحرض الأمير جنده على التضحية والإقدام . حتى يحدثوا فى ذلك الحصن ثغرة ، وينقبوا فيه نقباً ، فتقدم من عرض الجيش رجل ملثم غير معروف ، ودفع بنفسه إلى الحصن غير مبال بالموت ، وأحدث فيه ثغرة كانت سبباً فى سقوط الحصن ، ودخل الجيش المسلم فيه ، ففرح مسلمة كثيراً ، ونادى : أين صاحب النقب ؟ فلم يأته أحد ، فنادى مرة أخرى قائلا :

إنى أمرت حاجبى بإدخاله علىّ ساعة يأتى ، فعزمت (أى حلفت) عليه إلا جاء . وكان يريد أن يخصه بشىء من الغنائم والتكريم .

فجاء رجل ملثم إلى حاجب مسلمة وقال له : استأذن لى على الأمير ، فقال له الحاجب : أأنت صاحب النقب ؟ فقال : أنا أدلكم عليه ، وأخبركم عنه . فدخل الحاجب واستأذن للرجل على الأمير ، فلما مثل المجاهد بين يدى مسلمة قال له : أيها الأمير ، إن صاحب النقب يشترط عليكم ثلاثاً ، ألا تبعثوا باسمه فى صحيفة إلى الخليفة ، وأن لا تأمروا له بشىء ، وألا تسألوه من هو . فقال مسلمة : ذلك له . فقال الرجل فى استحياء : أنا صاحب النقب . ثم ولى مسرعاً .

فكان مسلمة لا يصلى بعد ذلك صلاة إلا دعا فيها ، فقال : اللهم اجعلنى مع صاحب النقب يوم القيامة !

* * *

والعمل الفدائى المؤمن يحتاج إلى استطلاع واسع واستكشاف دقيق ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من إرسال العيون ليستطلعوا الأنباء ، ويعرفوا أحوال الأعداء ، وها هو ذا يقول ذات مرة عن المشركين : من يأتينى بأخبار القوم ؟ فيقول الزبير بن العوام : أنا يا رسول الله .. فيقول النبي معجباً ومثنياً : لكل نبي حوارى ، وحوارى الزبير [1].

ولقد أوصى الإمام على ابنه محمداً وهو يقود جيشاً باستكمال دراسته لأحوال عدوه ، فقال له فيما قال : « ارم ببصرك أقصى القوم » . وكذلك أوصى عمر سعداً قائده ، فقال له فيما قال : « وتعرَّف الأرضَ كلها معرفة أهلها » . ويقول له أيضاً : « أذْكِ [2] العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرُهم » .

وكذلك يحتاج العمل الفدائى إلى المخادعة ، لأنه لون من الحرب ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « الحرب خدعة » .

---

(١) وفى رواية أنه قال : « الزبير ابن عمّى وحوارى » . والحوارى هو النصير . والحواريون هم أنصار عيسى بن مريم عليه السلام ، لأنه قال : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله ؛ فشبه النبى الزبير بهم فى النصرة .

(٢) أذكى النار : أوقدها وحركها ، وأذكى العيون : بثهم لجمع الأخبار .

وفى حديث آخر يقول : « لا يصلح الكذب إلا فى ثلاثة مواضع : الحرب فإنها خدعة ، والرجل يصلح بين اثنين ، والرجل يرضى امرأته » . ويقول المهلب بن أبى صفرة لأولاده : « عليكم فى الحرب بالمكيدة ، فإنها أبلغ من النجدة » .

ويحتاج العمل الفدائى إلى سرعة الحركة مع المباغتة ، ولذلك أوصى النبي قائداً لإحدى سراياه فقال له :

« أغر عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعهم » . ويقول ذو الإصبع العدوانى : « وأسرع النهضة فى الصريخ[1] ، فإن لك أجلا لا يعدوك » .

والعمل الفدائى يحتاج إلى حماية ظهور الفدائيين ، وإمدادهم بما يلزمهم ، ورعاية من خلفهم من أسر وأولاد ، حتى يحسنوا التفرغ لعملهم ، ولذلك قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « من جهز غازياً فقد غزا ، ومن خلف غازياً فى أهله بخير فقد غزا » .

* * *

أما بعد ، فالفدائى رجل يضع أمام عينيه على الدوام أمثالَ هذه الشعارات :

---

(١) أى عجل بالنجدة للمستغيث .

١ — يقول أحد الشعراء :

يجود بالنفس إن ضنّ البخيل بها
والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

٢ — ويقول عمرو بن العاص : « عليكم بكل أمر مزلقة مَهلكة » أى عليكم بجسام الأمور.

٣ — ويقول أيضاً : « من طلب عظيماً خاطر بعظيمته » . أى تعرض للنازلة الشديدة .

٤ — وتقول العرب : « المنية ولا الدنية » .

٥ — ويقول بعض الشعراء :

سأحمل روحى على راحتى وأمضى بها فى طريق الردى
فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يسوء العدا

المعلم الأكبر

لدروس التضحية والفداء

إذا كان الله تبارك وتعالى قد قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : [وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين] ، فإنه قد قال له أيضا : [يا أيها النبيُّ جاهِد الكفارَ والمنافقين واغلظْ عليهم ، ومأواهم جهنمُ وبئسَ المصير] . وقال له : [فلا تُطعِ الكافرين وجاهِدْهم به جهادًا كبيرًا] .

ولذلك رأينا أن النبي العظيم عليه الصلاة والتسليم الذى يقول : « أنا رحمة مهداة » ويقول : « أنا نبي المرحمة » ، هو نفسه الذى يقول : « أنا نبي الملحمة » أى المعركة ، ويقول : « أنا رسول الملاحم » :

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعاً ، وإن تلقه بالشر ينحسم

ولقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مثلا أعلى فى الرحمة والرأفة بمن يستحق الرحمة والرأفة ، وكان مثلا أعلى فى الشدة والتأديب لأهل البغى والطغيان ، وكان يضرب القدوة

من نفسه فى ميادين الجهاد والإقدام والفداء، فيتقدم الصفوف ، ويعطى الأسوة الحسنة لمن خلفه ، ولذلك قال الصحابى الجليل عمران بن حصين : « ما لقى النبي صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب» .

ولقد شهد الرسول أشد المواقف فى النضال والكفاح ، واضطرب من حوله كماة وأبطال، ولكنه ظل ثابتاً لا يبرح ، مقبلا لا يدبر ولا يتزحزح ، وما من شجاع إلا قد أحصيت له فرة ، أو وقع منه الهرب مرة ، سوى رسول الله فإنه لم يقبل لنفسه أبداً أن يترك الميدان منهزماً . وها هو ذا الصحابى الجليل البراء بن عازب يقال له : أفررتم يوم حنين عن رسول الله ؟ فيقول : نعم ، ولكن رسول الله لم يفر .

بل كان من عادة الرسول أن يتقدم نحو العدو عند اشتداد الموقف ، يتقدم فى سرعة وثبات جأش ، حتى روى أن العباس ابن عبد المطلب كان يأخذ بخطام دابة النبي حتى لا يلتحم بالأعداء داخل صفوفهم وجموعهم .

ها هو ذا البطل المجاهد الشجاع على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : « كنا إذا حمى البأس ، واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو أقربنا إلى العدو — وكان

من أشد الناس يومئذ بأساً » . والبأس هو شدة الحرب ، والحدق هي العيون ، واحمرارها كناية عن شدة الغضب .

وفي أحرج المواقف التي تزلزلت لها همم كثير من المناضلين — كيوم أُحد ويوم حنين — وقف الرسول المعلم الأكبر لدروس التضحية والثبات والفداء ، وسط الميدان ، والأهوال تحيط به عن يمين وشمال ، وقف راسخاً كالطود ، ثابتاً ثبات الرواسي ، وهو يهتف في جرأة وشجاعة : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب . هلموا إلىّ أيها الناس ، أنا رسول الله . أنا محمد بن عبد الله » .

وكلما تضاعفت الشدة ، وتسعرت أهوال القتال ، بدت فيه روح الطمأنينة والسكينة ، وهتف مشجعاً ومثبتاً المجاهدين معه : « يا أنصار الله ، وأنصار رسول الله ، أنا عبد الله ورسوله » .

ومن دروس الجهاد والفداء التي لقنها النبي لأصحابه أنه علمهم وجوب الطاعة للقائد ، وإخلاص الأداء للواجب ، والاستمرار في موقف المناضلة والمقاومة ، ولو بدرت عوارض مغرية ، أو مرت شدة مؤذية ، وها هو ذا يطلب من الرماة في غزوة أحد أن يحموا ظهور الجيش ، ثم يقول لهم في عزم وتصميم : « إذا رأيتمونا تتخطفنا الطير ، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم » .

كذلك علّم أصحابه المجاهدين الثقة بالنصر ، وعمق الرجاء

فى بلوغ الهدف ، مع بذل الجهد واستيعاب الطاقة ، ولذلك نراه وهو خارج إلى تأديب يهود خيبر الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، يجعل شعاره وهتافه قوله : « الله أكبر ، خربت خيبر ؛ إنا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

وكأنى برسول الله ومن معه أراهم من قوة إيمانهم ، وعمق يقينهم ، يطالعون النصر ببصائرهم ، قبل أن يشهدوه بأبصارهم ، وكأنه قد تحقق بين أيديهم وهم ما زالوا فى إقبالهم نحو عدوهم لينالوا منه ثأرهم ، ويطهروا من دنسه ديارهم .

ومما جاء فى بعض كتب السيرة أن زعيم المشركين بعث إلى الرسول يهدده ، ويحاول إنزاله على خطة لا تليق بالمجاهد المناضل ، فقال زعيم المشركين : « نريد منك نصف نخل المدينة ، فإن أجبتنا إلى ذلك ، وإلا فأبشر بخراب الديار ، وقلع الثمار » فكان الجواب ما معناه : وصل كتاب أهل الشرك والنفاق ، وفهمت مقالتكم ، فوالله ما لكم عندى جواب إلا أطراف الرماح ، وأشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام ، وإلا فأبشروا بضرب الحسام ، وفلق الهام ، وخراب الديار ، وقلع الآثار . . . » أو كما قال .

وقديماً جاء فى المثل العربى : « إن الحديد بالحديد يفلح » .

ولقد علم الرسول أتباعه أن القائد يبدأ بنفسه ، وطبق ذلك عملياً ، فهؤلاء هم أهل المدينة يفزعون ليلة من صوت مزعج سمعوه ، فخرجوا يستطلعون نبأه ، ولما بلغوا ظاهر المدينة وكادوا

يتجمعون ، وجدوا رسول قد سبقهم ، واستطلع حقيقة الصوت لهم ، وعاد وهو راكب على حصان عريان ليس عليه سرج ، وسيفه معه ، وهو يقول للناس مهدئاً : لن تراعوا ، لن تراعوا ... أى ليس هناك ما يستوجب الفزع .

والرسول صلوات الله وسلامه عليه هو الذى علم أتباعه الاستجابة المبادرة إلى أداء الواجب النضالى فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلمهم أن الحرب خدعة ، لا بد فيها من الاحتراس واليقظة والتورية ، واختيار الموقع المناسب ، والفرصة المواتية ، والتأهب السريع ، والتحرك النشيط ، والمباغتة للعدو .

وعلمهم أن القوة الحقيقية للجنود المجاهدين إنما هى فى إيمانهم ويقينهم ، لا فى كثرة عددهم وضخامة عدتهم فقط ، وعلمهم الشورى قبل المعارك وبعدها : بين القائد وأعوانه للانتفاع بكل الآراء ، ولاستعراض وجهات النظر . وعلمهم دقة الاستطلاع ، وتتبع الأنباء ، وجمع المعلومات ، وكتمان الأسرار ، وتجنب اليأس ، والإصرار على تحقيق الهدف .

ثم علمهم وطبعهم على الاعتصام بحبل الله ، والاستمداد من حوله وطوله ، لأنه خير الناصرين ، وعلمهم أولا وأخيراً « صناعة الموت » أو « صناعة الشهادة » بتعبير أدق ، فردد عليهم قوله : « من قُتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد » .

* * *

إنه النبي : المجاهد الأول ؛ والمعلّم الأكبر لدروس التضحية والفداء ، ونستطيع أن نشهد دلائل ذلك بوضوح وجلاء حين استعراض مواقف صحابته فى مواطن الفداء .

إنه النبي الذى تمنى أن يتكرر جهاده واستشهاده ، وإعادته إلى الحياة ليعاود الجهاد والاستشهاد ، فيقول : « والذى نفس محمد بيده لوددتُ أنى أغزو فى سبيل الله فأُقتل ، ثم أغزو فأُقتل ، ثم أغزو فأُقتل » .

ويؤكد سمو مكانة الجهاد حتى الاستشهاد بقوله : « ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا ، وأن له على الأرض من شىء ، غير الشهيد ، فإنه يتمنى أن يرجع فيُقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة » .

ويقول أيضاً : « يؤتى بالرجل من أهل الجنة ، فيقول الله : يا ابن دم ، كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : يا ربّ ، خيرَ منزل . فيقول الله : سل وتمنّ . فيقول : أسألك أن تردنى إلى الدنيا فأُقتل فى سبيلك عشر مرات ؛ لما يرى من فضل الشهادة » .

إنه النبي الذى كان يضع للمجاهدين الباذلين شعارات الأمل والرجاء ، والثقة بالنصر ، واليقين بما عند الله ، فيقول لصحابته : « ليكن شعاركم ، حم ، لا يُنصرون » . ويأمرهم مرة أخرى بأن يكون شعارهم : « أمتْ أمتْ » .

إنه النبي الذى يحث على الإقدام ، ويحرض على التضحية ، ويدفع إلى الفداء ، فيقول : « والذى نفس محمد بيده ما من كَلْم (أى جرح) يُكْلَم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِم ، لونه لون دم ، وريحه ريح مسك » .

إنه النبي الذى يهوّن على الفدائى وقع الموت ، فيخبره — وهو الصادق المصدوق — أنه سهل محتمل ، فيقول : « ما يجد الشهيد من مسّ القتل إلا كما يجد أحدُكم من مسّ القرْصة » .

إنه النبي الذى يفتح طريق الجنة من تحت السيوف وآلات النضال يحملها الأبطال ليحقوا حقًّا ، أو يبطلوا باطلا ، فيقول : « الجنة تحت ظلال السيوف » .

إنه النبي الذى يحبّب فى أعمال البطولة والفداء ، ويضمن كلّ الثواب للمصاب فى الجهاد وإن لم يبلغ النصر كله ، فيقول : « ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثى أجورهم ، وما من غازية أو سرية تخفق وتصاب إلا تمت أجورهم » .

إنه النبي الذى وسّع دائرة الشهداء ليدخلها الكثير من المسلمين ، فينالوا ما كتب الله لهم من حظ على درجات ، فيقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقى العدوّ ، فصدَقَ اللهَ حتى قُتل ، فذلك الذى يرفع الناس أعينهم يوم القيامة هكذا (ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته ، أى من شدة رفعها إلى أعلى) . ورجل مؤمن جيد الإيمان لقى

العدو ، فكأنما ضُرب جلدُه بشوك طلح من الجبن ، أتاه سهمُ غرْب (أى لا يدرى من رماه) فقتله ، فهو فى الدرجة الثانية .

ورجل مؤمن خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً ، لقى العدوّ ، فصدق الله حتى قُتل ، فذلك فى الدرجة الثالثة .

ورجل مؤمن أسرف على نفسه (عمل خطايا كثيرة) لقى العدو ، فصدق الله حتى قتل ، فذلك فى الدرجة الرابعة » .

أى أن الباب واسع يرحب بكل من يريد أن يجبر نقصاً ، أو يصحح خطأ ، أو يزداد ثواباً .

* * *

صلاة وسلاماً على نبي الملحمة ، نبي الجهاد . . .

صلاة وسلاماً على المعلم الأكبر لدروس التضحية والفداء .

صلاة وسلاماً على رسول الله : محمد بن عبد الله .

قائد أول فرقة فدائية

أبو بصير : عتبة بن أسيد

إن للمقاومة الفدائية فى صدر الإسلام أخباراً تحلو وتعلو حين تُرْوَى ، ولعل أول محاولة لهذه المقاومة ما كان عقب غزوة الحديبية[1] فى السنة السادسة للهجرة ، فقد اضطر المسلمون أمام ظروف قاهرة شديدة ، واستجابة لنظرة عميقة بعيدة ، أن يقبلوا وقف الحرب بينهم وبين المشركين إلى حين .

وكان من شروط الاتفاق أنه إن ارتد أحد من المسلمين ، وذهب إلى المشركين ، فإنهم لا يردونه ، وإن أسلم أحد من المشركين ، وجاء إلى المسلمين ، فإنهم يردونه . وكان الشرط فى ظاهره شديد الوطأة ، ولكن الرسول المعصوم الموحى إليه ، الموجَّه من ربه ، قال لأتباعه مهوِّناً ومشجعاً : « إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً » .

وبعد كتابة عهد الحديبية ، ورجوع النبى صلى الله عليه

---

(١) الحديبية – بضم ففتح فسكون – قرية متوسطة ليست بالكبيرة ، بينها وبين مكة مرحلة ، وبينها وبين المدينة تسع مراحل ، وسميت باسم بئر هناك ، وقيل سميت حديبية لأنه كان فى موضعها شجرة حدباء .

وسلم إلى المدينة ، جاءه أبو بصير عتبة[1] بن أسيد الثقفى ، جاءه هارباً من مكة بعد أن أسلم ، وجاء وراءه رجلان من المشركين يطلبان ردّه ، فلم يسع النبى صلى الله عليه وسلم إلا أن ينفذ الشرط ، ولما تألم أبو بصير من ذلك ، قال له الرسول : « يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت (من العهد) ، ولا يصلح فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً » .

يا لشدة الموقف العصيب ! ماذا يصنع أبو بصير ؟ أيعصى رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ وكيف وهو المؤمن الموقن الذى شهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؟ أيرجع إلى مكة حيث ينتظره التعذيب والاضطهاد والفتنة ؟ وكيف يرضى بهذا الهوان ؟ !

ماذا تصنع يا أبا بصير ؟ . ماذا تصنع ؟ ! . . .

انتبه أبا بصير ، ولا تنس أن رسول الله الصادق المصدوق قد قال لك منذ هنيهة : « إن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً » . فلا تغفل عن تلمس الطريق إلى هذا الفرج ، ولا تتوان فى البحث للوصول إلى هذا المخرج : « سيجعل الله بعد عُسْر يسراً » .

وعاد الرجلان ومعهما أبو بصير ، وهو يسبح فى بحر لجىّ

---

(١) بعض المؤرخين يقول إن اسمه « عبيد » .

من التفكير العميق ، والتأمل الدقيق . إن رسول الله قد أخبر بمجيء الفرج وتهيؤ المخرج فأين هما يا ترى ؟

وحينما انتهى الرجال الثلاثة إلى « ذى الحُليفة » وهو مكان يبعد سبعة أميال عن المدينة ، جلسوا يستريحون على الطريق ، وأخذ أحد الرجلين المشركين يثير أبا بصير ، ويسخر بالمسلمين ، إذ قال وقد رفع سيفه : « لأضربن بسيفى هذا فى الأوس والخزرج يوماً إلى الليل » . وهو يقصد بالأوس والخزرج الأنصار من المسلمين ؛ وكتم أبو بصير غيظه ، ثم قال للرجل : أرى سيفك هذا سيفاً جيداً ، فأرنيه .

وأخذ أبو بصير السيف من يده فى خفة ، ثم ضربه به ضربة قاتلة ، وفزع المشرك الثانى ، فأطلق ساقيه عائداً إلى المدينة ، وخلفه أبو بصير ، ولما أراد الرجل أن يطالب بإعادة أبى بصير إلى مكة مرة أخرى ، سارع أبو بصير يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، وفت ذمتك ، وأطلقنى الله عز وجل .

وهنا قال الرسول رامزاً ومشيراً إلى أمر جليل له دلالته ومغزاه : « ويلُ امـه مِسْعر حرب ، لو كان له رجال أو أصحاب » ، وكلمة : « ويل امه » تعبير تعود العرب قوله للإعجاب بالرجل الداهية . و « مسعر الحرب » هو الماهر فيها الخبير بها ، وقد قال رسول الله ذلك إعجاباً بأبى بصير وشجاعته ، وتمنياً أن

يكون بجواره أمثال له .

ثم قال الرسول لأبى بصير : « اذهب حيث شئت » .
وفهم البطل المجاهد ما فهم من كلام الرسول ، وسارع بالخروج ، وهو يفكر فيما يستطيع أن يفعله من أجل هذه الدعوة الإلهية المضطهدة ، ومن أجل هؤلاء المؤمنين المعذبين فى الأرض ، المغتربين فى سبيل عقيدتهم ، الذين تطاولت عليهم جموع المشركين والكافرين ، ومن أجل حريته التى يراد لها أن تذل وتضيع .

ثم هداه تفكيره — فى ضوء ما سمع وما فهم — أن يقيم على ساحل البحر الأحمر ، عند موضع يقال له « العيص » بالقرب من الطريق الذى تمر به قوافل التجارة للمشركين ، ذاهبة وآيبة بين مكة والشام ، واستقر رأيه على أن يهاجم هذه القوافل فى حركات فدائية بطولية ، ليستولى منها على ما يستطيع ، وبذلك يفيد نفسه ، ويفيد المسلمين بإضعاف أعدائهم ، ويغيظ المشركين بالاستيلاء على ما يمكن من تجارتهم .

ونجحت الفكرة . . .

وأخذ أبو بصير يسدد ضربات موجعة لقوافل المشركين ، وسرت كلمة الرسول هنا وهناك ، وهى قوله عن أبى بصير : « ويل امه مسعر حرب ، لو كان له رجال أو أصحاب » . وسمع بها أمثال أبى بصير ، فجعل كل منهم يفر بدينه ، وينضم إلى أبى بصير ، لأنهم خافوا إن ذهبوا إلى المدينة أن يردهم الرسول نزولا على حكم الشرط .

وتزايد عدد هؤلاء الفدائيين الشجعان حتى قاربوا الثلاثمائة ، وأخذوا يكيلون الضربات للمشركين وقوافلهم ، حتى ضج المشركون من هجمات أولئك الفدائيين ، وأدركوا أن بقاءهم فى المدينة كان خيراً وأحسن ، فأرسلوا إلى النبى عليه الصلاة والسلام يرجونه فى أن يستدعى هؤلاء الفدائيين إليه ، وأن يبقيهم عنده ، وهم لن يطالبوه بردهم ، ولا برد أمثالهم بعد ذلك . وقالوا لرسول الله : إنا قد أسقطنا هذا الشرط من الشروط ، فمن جاء منهم فأمسكه لديك فى غير حرج .

وهكذا هيأ الله تبارك وتعالى لمسعر الحرب رجالا وأصحاباً استجابوا لإشارة الرسول ورمزه ، فجعل الله لهم فرجاً ومخرجاً . وهكذا صدقت نظرة الرسول العميقة البعيدة المدى ، فانقلب هذا الشرط القاسى فى ظاهره خيراً وبركة على الإسلام والمسلمين : [واللهُ غالبٌ على أمره ولكن أكثرَ الناس لا يعلمون] .

وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم كتاباً من لدنه إلى أبى بصير ومن معه يستقدمهم إلى المدينة ، لتقوى بهم جبهة النضال الإسلامية ، ولكن الكتاب النبوى الكريم وصل إلى أبى بصير وهو فى آخر حياته ، فقد مرض مرضَ الموت .

وتناول أبو بصير الكتاب وهو فرح به ، وأنفاسه الأخيرة يسلم زمامها إلى بارئها نفَساً بعد نفس، ثم أسلم أبو بصير

روحه كلها ، وما زال كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يده ، فتناوله منه رفيقه فى الجهاد ، وزميله فى النضال « أبو جندل ابن سهيل »[1] ، وقام على تجهيز أخيه المجاهد الراحل إلى رضوان ربه ، ثم دفنوه فى معقل كفاحه وفدائيته . . . هناك على ساحل البحر ، ودفنوا معه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليكون شاهداً له يوم يلقى ربّ العزة والجلال .

وعاد أولئك المجاهدون الفدائيون إلى المدينة ليواصلوا كفاحهم مع إخوتهم ، وكأن آذانهم وقلوبهم تدوى بصوت الحق جل جلاله حينَ يقول : [مِنَ المؤْمنين رجالٌ صَدقوا ما عاهَدوا اللهَ عليه ، فمنهم من قضَى نَحْبَه ، ومنهم من ينتظر ، وما بَدَّلوا تبديلا] .

رضوان الله على أول فدائى فى صدر الإسلام ، وأمير أول فرقة فدائية فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام : أبى بصير عتبة بن أسيد الثقفى . وسلام عليه فى الخالدين .

---

(١) سنعرف خبره فيما بعد .

الفدائى الشهيد ابن الشهيد

أبو جندل بن سهيل

بالمقاومة والثبات يتمهد السبيل أمام النصر الجليل ، وبهم الأبطال الذين باعوا لله أنفسهم وأموالهم تتفتح الأبواب أمامهم إلى الفوز فى الدنيا ، والنعيم فى الآخرة ، ولقد ضرب المسلمون الأوائل أروع الأمثلة فى التضحية والفداء ؛ ولقد عرفنا أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد اضطر إلى توقيع « عهد الحديبية » الذى نص على وقف الحرب بين المسلمين والمشركين إلى حين ، وعلى رد من يأتى مسلماً من مكة إلى المدينة .

وكان ممثل المشركين فى توقيع العهد هو « سهيل بن عمرو » وقد تشدد عند كتابته ، فاحتمله الرسول لأمر يريده الله ، ويوجه رسوله إليه ، وكان لسهيل ولد اسمه « أبو جندل » ، شرح الله صدره للإسلام وهو فى مكة بعد الهجرة ، فغضب عليه أبوه ، وقيده وحبسه فى داره ؛ ولكن أبا جندل استطاع الهرب ، ولجأ إلى المسلمين ، عقب توقيع العهد مباشرة ، وكان ما زال عالقاً به بعض قيوده .

ورآه أبوه سهيل فثارت فيه حمية الجاهلية — إذ كان على شركه حينئذ ، ولما يسلم بعد — فأخذ يضرب ابنه ، ثم أمسك بتلابيبه ليعيده إلى مكة معه ، وأخذ يطالب رسول الله بتنفيذ

ذلك حسب الشرط ، فلم يسع النبي إلا أن ينزل على الشرط وعلى حكم الاتفاق ، وهنا صرخ أبو جندل يقول بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أ أُرَدّ إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ ألا ترون ما لقيت ؟

ويشتد الأمر على المسلمين ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يخففه عليهم ، ويفتح أمامهم أبواب الأمل والرجاء ، فيقول : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم عهداً ، وأعطيناهم على ذلك ، وإنا لا نغدر بهم ».

واشتد أمر أبي جندل على الفاروق عمر بن الخطاب أكثر وأكثر ، وعمر هو عمر الشديد الصارم العنيف ، فيدنو من أبي جندل بحذر ، ويمشي إلى جانبه ، ويقول له ، وكأنه يهمس إليه : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دمُ أحدهم كدم كلب . ثم يقرِّب عمر سيفه من أبي جندل ، ويظهره له في حذر ، راجياً أن يمد أبوجندل يده ، ويأخذ السيف ، ويدافع به عن نفسه ، ولكن أبا جندل لم يفعل ، ولعله رأى أن ذلك مخالف لما نصحه به الرسول .

استمع أبو جندل إلى صوت النبي المرسل من الله رحمة للعاملين ، فأطاع واستجاب ، واحتمل الأذى والعذاب ، ورجع مع أبيه ، بعد أن عاد عمر يقترب منه ، ويقول له مرة أخرى : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دمُ

أحدهم كدم كلب . ثم يقرّب منه سيفه ليأخذه فيدافع به عن نفسه ، ولكن أبا جندل مضى فى طريقه مع أبيه ، وفى نفسه من الهم ما الله به عليم .

رجع أبو جندل مع أبيه وهو يفكر فى أمره ويتأمل ، راجياً أن يجعل الله غده القريب خيراً من حاضره ، وتطن فى أذنه على الدوام كلمة الرسول صلى الله عليه وسلم : « سيجعل الله لك فرجاً ومخرجاً » . وبعد قليل استطاع أبو جندل أن ينفلت من أسره ، وأن يخرج من مكة مناضلا فى سبيل عقيدته وإيمانه ، واستطاع أن يجمع حوله سبعين مناضلا مؤمناً فدائيا ، ممن أسلموا لله ولرسوله ، وأراد الطغيان الكافر الفاجر أن يحول بينهم وبين إرادتهم وحريتهم ، وخاف هؤلاء أيضاً أن يتجهوا إلى المسلمين فى المدينة ، فلا يقدروا على حمايتهم ، ويردوهم نزولا على شرط العهد ، فاتفقوا على أن يقوموا بمحاولات فدائية بين المشركين أنفسهم ، بأن يقطعوا عليهم طرقهم وخطوطهم ، وأن يستولوا على ما يستطيعون الاستيلاء عليه من أموالهم وتجاراتهم ، وأن يفسدوا لهم ما يستطيعون إفساده من محاولاتهم الباغية ومؤامراتهم الخسيسة ضد الإسلام والمسلمين .

ونجح هؤلاء الفدائيون الأبطال فيما أرادوا نجاحاً بعيداً ، حتى افتخر بذلك زعيمهم أبو جندل ، فنظم شعراً يهدد فيه المشركين ، وينوه فيه برفاقه الأبطال المناضلين ، ويقرر أنه سيبقى مع زملائه ، وبأيديهم سيوفهم ورماحهم ، يقاومون

ويضحون ، حتى يكونوا أوفياء لإيمانهم ، وحتى يكتب الله لهم مخرجاً يؤيدون به الحق ويذلون الباطل ، لأن المؤمن يطلب واحدة من اثنتين : إما أن ينتصر فيعز ويعلو : [ولِلهِ العزةُ ولرسولِه والمؤمنين ولكنَّ المنافقين لا يعلمون] وإما أن يموت شهيداً بلا تقصير ، فيكون له عند ربه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من ألوان النعيم والتكريم ، فقال أبو جندل :

أبلغ قريشاً عن أبي جندل ... أنا بذي المروة فالساحل[1]
في معشر تخفق أيمانهم ... بالبيض فيها والقنا الذابل[2]
يأبون أن نبقى لهم رفقة ... من بعد إسلامهم الواصل
أو يجعل الله لهم مخرجاً ... والحق لا يغلب بالباطل
فيسلم المرءُ بإسلامه ... أو يقتل المرءُ ولم يأتل[3]

* * *

ثم علم أبو جندل ومن معه أن « أبا بصير » الفدائي المؤمن قد سبقهم إلى تنظيم حركة مقاومة مثمرة ، وأنه يقيم بالقرب من الساحل ، فسارعوا بالذهاب إليه ، واشتركوا معه في تجميع

---

(١) ذكر ياقوت عن ذي المروة أنها قرية بوادي القرى ، وقيل بين خشب ووادي القرى .

(٢) البيض : جمع بيضة ، وهي بيضة الحديد ، أي السيف . والقنا : جمع قناة وهي الرمح ، والذابل : الضامر وهذا كناية عن جودته .

(٣) لم يأتل : لم يقصر .

المقاومين المناضلين ، واتفقوا على تنسيق خططهم ، وترتيب أعمالهم ، حتى تزيد حركتهم قوة وأثراً ، وما دام هدفهم واحداً ، فلم لا يكونون كذلك صفاً واحداً :

«ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشلوا وتَذْهبَ ريحُكم واصبروا إن الله مع الصابرين » .

وكان أبو بصير يؤم القوم فى الصلاة من قبل ، فلما جاء أبو جندل تأخر أبو بصير عن مكان الإمامة ، وقدم إليه أبا جندل ، إذ رآه أحقّ بذلك وأجدر .

وهكذا لم يكن بين هؤلاء المناضلين الفدائيين حب ذات ، أو رغبة فى ظهور أو شهرة ، ولكنهم كانوا يتعاونون ويجاهدون من أجل الهدف المشترك والغاية النبيلة فى أخوة وإخلاص وإيثار .

وتزايد عدد هؤلاء حتى بلغوا ثلاثمائة ، وأخذوا يهددون قوافل أعدائهم وتجارتهم ، ويقتلون ويأسرون ، ويستولون على ما يستطيعون الاستيلاء عليه من سلاح أو عتاد أو مال ، حتى ضج المشركون الجبارون — كما عرفنا — من خطر هؤلاء الفدائيين ، ففزعوا إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، يلحون فى الرجاء عنده أن يستدعى هؤلاء إليه ، وأن يؤويهم لديه ، ولن يطالبوه بهم ولا بغيرهم ، لأنهم قد تنازلوا نهائياً عن هذا الشرط فى العهد .

وأرسل النبى عليه الصلاة والسلام يستدعيهم ، لينتفع بهم

فى مجال آخر من مجالات النضال المنظم . وأسلم أبو بصير روحه حينما وصل خطاب الرسول ، فحمل التبعة أبو جندل ، وعاد بكتيبة المقاومين الفدائيين إلى المدينة ، وواصلوا النضال مع المؤمنين ..

واشترك أبو جندل بعد ذلك فى غزوة فتح مكة ، كما اشترك فى غزوات غيرها ، وظل يجاهد فى تضحية وفداء ، فى حياة الرسول وبعد وفاة الرسول ، ثم كتب الله له نعمة الشهادة وهو يجاهد فى أرض الشام ، وكان لفظ «الشام» يطلق حينئذ على سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ، فلقى أبو جندل ربه شهيداً مجيداً فى غزوة « اليرموك » ، واليرموك نهر من فروع نهر الأردن ، يجرى أولا قرب حدود سورية وفلسطين ، ثم ينحدر جنوباً إلى فلسطين ، ويصب جنوب نهر الحولة ؛ ويطلق اليرموك أيضاً على الوادى الموجود فى حوران ، جنوب دمشق فى طرف الغور ، وكانت غزوة اليرموك فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة (سنة ٦٣٦ ميلادية) ، وهى من الغزوات المتألقة فى تاريخ الإسلام .

* * *

والعجيب بعد هذا أن سهيل بن عمرو — وهو والد أبى جندل كما عرفنا — قد صنع الله به ما يعد آية على معجزة الإسلام العظم . فسهيل هذا الذى كان مشركاً عنيداً متعصباً شديد التعصب للشرك والمشركين ، والذى تعنت وتشدد يوم « عهد الحديبية » ، والذى رفض أن يكتب فى العهد كلمة « بسم الله

الرحمن الرحيم » ، وقال : لا أعرف ما الرحمن ولا ما الرحيم ، وأصر على أن يكتب كلمة : « باسمك اللهم » ، والذى رفض أن يكتب فى العهد كلمة « محمد رسول الله » . وقال للنبى : لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، وكلما تشدد سهيل احتمل رسول الله وصبر ، لأنه يرى بنور الله خير العاقبة ، فيقول : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى » . . .

سهيل هذا تبهره أضواء الإسلام بعد ذلك ، وتحيط به شواهد الإيمان فتأخذه عن يمين وشمال ، فإذا هو يقلع عن عناده ، ويخرج من جحوده ، ويقبل طائعاً مختاراً ، فيسلم يوم فتح مكة ، ويحرص على أن يكفّر عما فعل وقدّم ، فإذا هو يكثر الصلاة والصيام والتصدق والاشتغال بأمور الآخرة ، حتى يصيرفى ذلك مثلا باهراً يستلفت الأبصار ويثير الأفكار ، وحتى يقول عنه سعيد بنُ مسلم ، كما يروى عنه النووى :

« لم يكن أحد من كبراء قريش الذين أسلموا يوم الفتح أكثر صلاة وصوماً وصدقة واشتغالاً بما ينفعه فى آخرته من سهيل بن عمرو ، حتى شحب لونه وتغير ، وكان كثير البكاء رقيقاً عند قراءة القرآن ، كان يختلف إلى معاذ بن جبل يقرئه القرآن ويبكى ، حتى خرج معاذ من مكة ، فقيل له : تختلف إلى هذا الخزرجى ؟ لو كان اختلافك إلى رجلٍ من قومك ؟ فقال : هذا الذى صنع بنا ما صنع ، حتى سبقنا

كل السبق ، لعمرى أختلف ، لقد وضع الإسلامُ أمرَ الجاهلية ، ورفع الله بالإسلام قوماً كانوا فى الجاهلية لا يذْكرون ، فليتنا كنا مع أولئك فتقدمنا ، وإنى لأذكر ما قسم الله لى فى تقدم أهل بيتى من الرجال والنساء ، فأسر به ، وأحمد الله عليه ، وأرجو أن يكون الله قد نفعنى بدعائهم ، وأن لا أكون مت على ما مات عليه نظرائى ، فقد شهدتُ مواطن أنا فيها معاند للحق » ! .

وحينما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع حرص سهيل بن عمرو على أن يقوم بخدمة النبى ، فكان يقرّب إليه الإبل التى يقوم النبى بذبحها تقرباً إلى الله ، ولما دعا النبى بالحلاق ليحلق شعره كان سهيل يحرص على التقاط ما يتناثر من شعر الرسول ويضعه على عينيه .

ويروى لنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه أنه رأى هذا المنظر فتعجب له ، وأخذ يقارن فى نفسه بين موقف سهيل هنا وقد أسلم ، وموقفه يوم الحديبية ، حين رفض أن يكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم » وأن يكتب : « محمد رسول الله » . يقول أبو بكر : « فحمدت الله وشكرته أن هداه للإسلام » .

* * *

وحينما توفى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وارتجت دنيا المسلمين بسبب ذلك ، وتزلزلت عقول الضعفاء من أهل مكة ، وقف سهيل بن عمرو يحث على الاستمساك بعروة الله الوثقى ،

فيقول لقومه : « يا معشر قريش ، لا تكونوا آخر من أسلم ، وأول من ارتد ، فوالله ليمتدن هذا الدين امتداد الشمس والقمر » . ثم مضى يخطب قومه خطبة طويلة يوصيهم فيها بالثبات على الدين ، والجهاد مع المؤمنين ، والصبر مع الموقنين .

ثم خرج سهيل هذا بأهل بيته إلى الشام مجاهداً ، وظل يجاهد مع ولده أبي جندل جنباً إلى جنب ، حتى نالا الشهادة معاً في غزوة « اليرموك » [وربُّك يخلقُ ما يشاءُ ويختار] .

يالصنع الإيمان العجيب ! . . .

وقد شاء الله تبارك وتعالى أن تكون أسرة « سهيل » أسرة مجاهدين شهداء ، فذهب سهيل إلى ربه شهيداً ، وذهب ولده أبو جندل أيضاً إلى ربه شهيداً ، وكان لسهيل ولد آخر اسمه عبد الله ، خرج مع المشركين في غزوة بدر ، ليقاتل معهم المسلمين ، ولكن الله هداه للإسلام ، فترك صفوف الكافرين إلى صف المؤمنين ، وظل مؤمناً مجاهداً مناضلا ، حتى ذهب إلى ربه شهيداً كذلك : في غزوة اليمامة :

[ذُريةً بعضها من بعض واللهُ سميعٌ عليم] .

نضر الله بالنعيم والرضوان وجوه أولئك المناضلين الشهداء .

قائد أول سرية فدائية

عبد الله بن جحش

إنه أبو محمد عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدى ، وأمه هى آمنة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سبق إلى الإسلام قبل دخول النبي دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة ، ثم هاجر إلى المدينة .

وكانت فيه رجولة وبطولة وفدائية ، فجعله الرسول أميراً على أول سرية كانت فى الإسلام لمناوشة الأعداء المشركين ، والسرية مجموعة من المناضلين تخرج فتغير على العدو ثم تعود ، وسميت سرية لأنها تسرى خفية ، أى تتحرك فى تكتم وتستر ، وتبدأ من خمسة أشخاص ، وقد تبلغ أربعمائة .

وأرسل النبي عليه الصلاة والسلام معه ثمانية رجال ، ليس فيهم أحد من الأنصار ، بل كلهم من المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، وهم سعد بن أبي وقاص ، وعامر بن ربيعة ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وخالد بن البكير ، وسهيل ابن بيضاء ، وعكاشة بن محصن ، وواقد بن عبد الله ، وعتبة ابن غزوان .

وكان كل اثنين منهم يعتقبان بعيراً ، أى يركب كل منهما مسافة ويمشى أخرى ، وأعطاه الرسول كتاباً مغلقاً ، وأمره

ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، فإذا فتحه نفذ ما فيه ، ولا يستكره أحداً من أصحابه ، بل يترك لهم الخيار ، فمن تابعه فعل ، ومن رجع رجع .

ونفذ عبد الله أمر قائده ورائده ؛ وعند المكان المناسب فتح الكتاب ، فإذا فيه : « إذا نظرت فى كتابى هذا ، فامض حتى تنزل نخلة ، بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم » .

وما كاد عبد الله يبلغ نهاية الكتاب حتى هتف قائلا : سمعاً وطاعة لله ولرسوله !

وأخبر عبد الله رفاقه بما فى الكتاب ، ثم قال لهم : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانى أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق معى ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وعاد يقول : « من كان يريد الموت فليمض وليوص ، فإنى موص وماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم » !

واستجاب الجميع لنداء البطولة والشرف ، ولم يتخلف منهم أحد . وهكذا تكون إثارة حوافز الهمة فى صدور الرجال ، بلا إرغام ولا احتيال ، فالرسول عليه الصلاة والسلام كان يعرف معادن هؤلاء الرجال ، وكان يدرك إيمانهم وجرأتهم واستعدادهم للبذل والفداء ، ولكنه ترك لهم الخيار فى هذا الموطن ؛ ليزدادوا ثقة ورضى ، وليقدموا على عملهم الجليل بشهامة وكرامة .

واشتبك هؤلاء المجاهدون مع مجموعة من أعدائهم المجرمين كانت معهم قافلة تجارة ، وكان الوقت آخر شهر رجب ، وهو شهر حرام ، قد تعودوا من قبل وقف القتال فيه ، فتشاور المجاهدون فيما بينهم : أيهجمون على أعدائهم فوراً ، أم ينتظرون حتى يفلتوا من أيديهم ؟ ثم عزموا وأقدموا على الهجوم ، ويروى أنهم ظنوا أن الشهر الحرام قد انتهى ، وبدأ شهر غير حرام ، وهو شهر شعبان ، واستولوا على القافلة ، وقتلوا من أشخاصها رجلا اسمه : عمرو بن الحضرمى ، وأسروا أسيرين ، وعادوا بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وانتهز الفرصة لئام اليهود ممن كانوا فى حمى المدينة ، فأخذوا يثيرون الفتن ، ويشوهون صورة هؤلاء الفدائيين الذين ينتصفون لأنفسهم ممن بغوا عليهم ، فقال اليهود وغيرهم من أعداء المسلمين إن هؤلاء المجاهدين قد قاتلوا فى الشهر الحرام ، وهذا لا يليق .

ولم يترك الله تبارك وتعالى عباده فى حيرة أو بلبلة ، بل أنزل قوله عزّ من قائل : [يسأَلونَكَ عن الشهرِ الحرامِ قتالٍ فيه ، قُلْ قتالٌ فيه كبير ، وصَدٌّ عن سبيل الله وكُفْرٌ به والمسجدِ الحرام ، وإخراجُ أَهلِه منه أكبرُ عندَ الله ، والفتنَةُ أكبرُ من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردُّوكم عن دينكم إن استطاعوا ، ومن يَرْتَدِدْ منكم

عن دينه فيمتْ وهو كافرٌ فأُولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأُولئك أَصحابُ النارِ هم فيها خَالدون] .

يقول ابن كثير فى السيرة معلقاً على هذه الآية الكريمة :

« أى إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام ، فقد صدوكم عن سبيل الله ، مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام ، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم ، والفتنة أكبر من القتل ، أى قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل ، ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه ، غير تائبين ولا نازعين » .

وحينئذ فرح أولئك المجاهدون ، وفرح معهم المسلمون ، بذلك التنزيل الإلهى المجيد الذى يقرر أن العدوان يدفع بالعدوان ، ما دام المعتدون لم يراعوا الحرمات .

وقال عبد الله شعراً يعرض فيه بالفتنة التى أثارها اليهود وغيرهم حول هذه الواقعة ، وفيه يقول :

تعدون قتلاً فى الحرام عظيمة   وأعظمُ منه لو يرى الرشد راشد

صدودُكمُ عما يقول محمد   وكفرٌ به ، والله راء وشاهد

وإخراجكم من مسجد الله أهله

لئلا يُرى لله فى البيت ساجد

فإنا — وإن عيرتمونا بقتله —

وأرجف بالإسلام باغ وحاسد

سقينا من ابن الحضرمى رماحنا
بنخلة لما أوقد الحرب واقــد

وبعد أن نزلت الآية السابقة تزكى عمل هؤلاء الفدائيين ، وتقرر أنه عمل مشروع ، أراد هؤلاء الأبطال أن يستزيدوا من الخير ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله تعالى عقب الآية السابقة قوله : [إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهَدُوا فى سبيل الله أُولئك يرجون رحمة اللهِ واللهُ غفور رحيم] ، فَوضعهم الله من ذلك على أَعظم الرجاء .

وكان سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان قد تخلفا فى الغزوة عن زملائهما للبحث عن جمل ضل لهما ، وسارع المشركون يطلبون من الرسول فك الأسيرين بفداء يدفعونه ، فقال النبي عن سعد وعتبة : « لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ، فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم » .

ووصل المجاهدان سعد وعتبة ، فقبل النبي الفداء ، ورد إليهم الأسيرين ، وقد أسلم أحدهما بعد ذلك ، واسمه « الحكم ابن كيسان » ، وجاهد مع الرسول حتى نال الشهادة ، وأما الآخر واسمه عثمان بن عبد الله فقد حرمه الله التوفيق فمات على الكفر .

* * *

وواصل عبد الله بن جحش الفدائى البطل جهاده مع

رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فشهد معه غزوة بدر ، وشهد معه غزوة أحد ، ومن أروع مواقف الفدائية فى تاريخ الإسلام أن عبد الله قال لسعد بن أبى وقاص قبيل غزوة أحد : ألا تأتى فندعو الله ؟ هلم فلندع الله ، وليذكر كل واحد منا حاجته فى دعائه ، وليؤمن الآخر على دعاء أخيه .

ثم انتحيا ناحية ، ودعا سعد أولا فقال : يا رب ، إذا لقيت العدو غداً فلقنى رجلا شديداً بأسه ، شديداً حرده (أى غضبه) أقاتله فيك ، ويقاتلنى ، ثم ارزقنى عليه الظفر حتى أقتله وآخذ سلبه .

هكذا دعا سعد ، فماذا كان دعاء عبد الله ؟

لقد دعا فقال : اللهم ارزقنى غداً رجلا شديداً بأسه ، شديداً حرده ، أقاتله فيك ويقاتلنى ، فيقتلنى ، ثم يأخذنى فيجدع (أى يقطع) أنفى وأذنى ؛ فإذا لقيتك قلت لى : يا عبد الله ، فيم جدع أنفك وأذناك ؟ فأقول : فيك يا رب وفى رسولك ؛ فتقول لى : صدقت يا عبد الله .

وكذلك كان ! . . .

تحققت دعوة عبد الله ، فقاتل ما قاتل فى غزوة أحد ، ثم سقط فى المعركة شهيداً مجيداً ، ومثل المجرمون الآثمون بجسمه ، فقطعوا أنفه وأذنيه ؛ وقال سعد بعد المعركة : « كانت دعوة عبد الله خيراً من دعوتى ، لقد رأيته آخر النهار ، وإن أذنه وأنفه معلقان فى خيط » !

ولذلك أطلق تاريخ الإسلام على عبد الله لقب « المجدَّع » أى المقطع الأطراف ، فكان هذا التقطيع شرفاً له أى شرف ، ووساماً له عند ربه أى وسام ؛ ولذلك دفنه سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه مع عمه سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب قبر واحد ، رضوان الله عليهما ، وكان عمر عبد الله حين نال الشهادة فوق الأربعين بقليل .

ولقد روى أن عبد الله انقطع سيفه ، وهو يجاهد فى معركة أحد » فأعطاه الرسول عرجون نخلة ، فصار فى يده سيفاً يجاهد به ، ولقد ظل هذا العرجون من وراء عبد الله أثراً كريماً يتوارثه القوم ويعتزون به ، حتى اشتراه أحد المسلمين بمائتى دينار .

ولقد أراد رسول الله أن يخبر عن المصير الكريم العظيم الذى صار إليه شهداء غزوة أحد ، وفيهم عبد الله هذا ، فقال : « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقيلهم ، قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا (أى لا يجبنوا ولا يفروا عند الحرب) ، فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم . فأنزل الله تعالى على نبيه هذه الآيات : [ولا

تَحْسبنَّ الذين قُتِلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقُون ، فَرِحين بما آتاهم اللهُ من فضلِه ، ويستبشرون بالذين لم يَلْحَقُوا بهم من خلْفِهم ، ألاَّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمةٍ من اللهِ وفضلٍ ، وأن الله لا يُضيع أجرَ المؤمنين] .

ذو الهجرتين الشهيد
أبو سلمة المخزومى

إذا كان الإنسان العاقل الحر محتاجاً فى حياته ونضاله إلى ألوان من وسائل الحماية والصيانة والإعزاز ، فإن أقوى هذه الوسائل كلها هو سلاح الإيمان ، والإيمان هو ذلك الاعتقاد الدينى الوطيد الراسخ ، الذى لا يتطرق إليه شك أو ريب ، بل يظل وثيق الصلة بالله رب العالمين ، فيواصل المؤمن على الدوام كفاحه وجهاده فى طريق الحق والعدل والخير ، ثابت الجأش بحصانة اليقين ، واثق الخطوة بفضل الإيمان . قوى الرجاء فى عون الله ، صادق البذل من حسه ونفسه ، وماله وعمله ، فى سبيل ما آمن به واعتقد فيه ، لأن الله جل جلاله يقول : [إنما المؤمنون الذين آمنوا باللهِ ورسولهِ ، ثم لم يرتابوا ، وجاهَدُوا بأموالِهم وأنفسهم فى سبيل الله أُولئك هم الصادقون] .

ويظل المؤمن موقناً بأنه إن انتصر وفاز ، فقد أعز كلمة الحق ، وعاش حياة الكرامة والحرية ، وإن مات مجاهداً فقد مضى إلى ربه شهيداً مردداً قول ربه : [قُلْ لنْ يُصيبنا إلا ما كتبَ اللهُ لنا هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ،

قل هَلْ تَرَبَّصون بنا إلا إحْدَى الحُسْنَيَيْن ، ونحن نتربَّص بكم أَن يصيبَكم اللهُ بعذاب من عندِه أَو بأَيدينا . فتربَّصُوا إنا معكم متربصون] .

ولقد ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتباعه بمنهج الإيمان والإحسان ، والإتقان والإخلاص ، والثبات على المبدأ الأمين حتى النصر المبين أو الاستشهاد المجيد .

وهذا واحد من أولئك الأتباع الأبرار الذين خلد ذكرهم على الأيام :

إنه أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال القرشى المخزومى ، وأمه هى « برّة بنت عبد المطلب » عمة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وبينه وبين الرسول أمور مشتركة فوق الأخوة فى الإسلام والإيمان ، منها أن كلا منهما من قريش ، وأنهما قريبان ، فأبو سلمة ابن عمة النبي ، وقد رضعا معاً من ثدى واحد ، فقد أرضعتهما « ثُوَيبة » مولاة أبى لهب ، وكل منهما قد أجاره أبو طالب من اعتداء المشركين عليه .

وقد أسلم أبو سلمة مبكراً ، وتروى السيرة العطرة أنه أسلم مع أبى عبيدة ، وعثمان بن عفان ، والأرقم بن أبى الأرقم فى يوم واحد ، وأبو عبيدة هو الذى قال فيه الرسول : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة هو أبو عبيدة عامر بن الجراح » ، وعثمان هو ذو النورين ، وهو الرجل الذى أخبر عنه الرسول بأنه

« رجل تستحى منه الملائكة » ، والأرقم هو صاحب الدار التى كانت أول مدرسة فى الإسلام علم فيها الرسول أتباعه دعوة الحق ومبادئ الإيمان :

ولقد لقى أبو سلمة فى أول إسلامه أذى شديداً من المشركين ، حتى اضطر أن يلجأ إلى خاله أبى طالب ليحميه ويجيره على طريقة العرب ، فحماه وأعلن بين الناس أنه فى جواره ، فذهب فريق من المشركين — من بنى مخزوم — إلى أبى طالب يقولون له : لقد منعتَ منا ابن أخيك محمداً ، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

فقال أبو طالب : إنه استجار بى ، وهو ابن أختى ، وإن أنا لم أمنع ابن أختى ، لم أمنع ابن أخى !

ولكن جمع الشرك فجر حين كفر ، فامتد إيذاؤه للمؤمنين وانتشر ، وتلقى أبو سلمة منه المزيد بعد المزيد ، حتى اضطر أن يهاجر بإيمانه وعقيدته مع زوجته الطاهرة « أم سلمة » — وهى هند بنت أبى أمية بن المغيرة — وقيل إن اسمها رملة ، ولعلها كانت تسمى بالاسمين ، ثم غلبت عليها كنية « أم سلمة » نسبة إلى ولدها سلمة .

هاجر الزوجان المجاهدان إلى الحبشة مرتين ، وكانت الهجرة إلى الحبشة فى رجب سنة خمس من البعثة ، فخرجا أول طائفة هاجرت إلى الحبشة ، وكانت تضم نحو عشرة أشخاص ، ثم توالى المهاجرون ، ورُوى أنهما كانا أول من هاجر إلى

الحبشة[1] ، وظل المهاجر وزوجته هناك سنوات ، لم تغيّر الهجرة ولا الغربة ولا الوحشة ولاطول المدة من إيمانهما قليلا أو كثيراً . ولقد قصت السيدة أم سلمة قصة الهجرة إلى الحبشة فى عبارة مشجية مؤثرة يمكن أن تراجع بطولها فى كتب السيرة[2] .

وحينما دخل نور الإسلام أرض المدينة المنورة ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه عن المدينة وأهلها : « إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً » ، وبدت تباشير الهجرة إليها ، كان أبو سلمة أول من هاجر أيضاً ، وخرجت معه زوجته الوفية لتشاركه رحلته وهجرته ، ولكنها لم تستطع ، وحيل بينها وبين ما تريد ، فقد تكبكب المشركون البغاة حول المهاجرين العظيمين ، وفرقوا بين أبى سلمة وزوجته وولده « سلمة » الصغير ، مع أن هذه الأسرة المؤمنة بدأت هجرتها فى وقت مبكر جداً ، قبل بيعة العقبة بسنة ، حينما عاد المشركون إلى إيذاء أبى سلمة عقب عودته من هجرته إلى الحبشة ، ولقد همّ أبو سلمة حينئذ أن يعود إلى الحبشة مرة أخرى ، ولكنه علم أن للمسلمين إخوة مثلهم مسلمين فى المدينة فاتجه إليها .

أرغم المشركون أبا سلمة على هجرته وحيداً ، وأما زوجته

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووى ، والسيرة الحلبية .

(٢) يراجع مثلا كتاب « السيرة النبوية » لابن كثير ، ج ٢ ص ١٧ — ٢٣ ، وكتاب الاكتفاء ، ج ١ ص ٣٢٥ .

فقد انتزعها أهلوها بالقوة وضموها إليهم ، وأما ولده الطفل الصغير « سلمة » فقد اختلفوا عليه ، وتجاذبوه فيما بينهم ، كأنه فريسة بين جمع من الوحوش ، حتى خلعوا يده ، واستولى عليه أعمامه ، ومضى أبو سلمة وحيداً مرغماً نحو المدينة ، حتى نزل فى « قباء » هناك .

وظلت أم سلمة حبيسة فى مكة ما يقرب من سنة ، بعيدة عن زوجها ، وظل أبو سلمة وحيداً بعيداً عن زوجته وولده هذه المدة ، وظل يجاهد ويناضل ، لا يضطرب إيمانه ولا يتزلزل ، وبعد ذلك الوقت الطويل المضنى جمع الله بين أبى سلمة وزوجته وولده : فى رحاب المدينة ، وفى ظلال أكرم الخلق محمد عليه الصلاة والسلام ، وقد قصت أم سلمة قصة هجرتها مع ولدها بعبارة رائعة مؤثرة [١] .

ولكن اجتماع الشمل لم يصرف أهل الإيمان عن مواصلة النضال والكفاح ، فحينما بدأت غزوة بدر سارع إليها أبو سلمة ، فقاتل فيها قتال الصادقين ، وجاهد جهاد الفدائيين ، ورمى نفسه على الموت فى سبيل الله عز وجل ، ففر الموت منه ، بمقتضى كلمة أبى بكر الصديق الصدوق رضى الله عنه : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

وبعد غزوة بدر جاءت الغزوة العصيبة الشديدة : غزوة أحد ، فسارع إليها أبو سلمة ، وواصل فيها جهاده وجلاده ،

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٢ ص ٢١٥ – ٢١٧ .

مقدماً غير محجم ، حتى ناله وسام إلهى من هذه الغزوة ، وهو جرح عميق فى عضده ، ظل شهراً يتداوى منه ، وهو يتحرق شوقاً إلى معاودة القتال فى الميدان .

وما كاد يبلغ عضده مبلغ النقاهة حتى تطلع إلى الجهاد ، وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرضى نزعة النضال فى نفس أبى سلمة ، وكان قد بلغه أن طليحة بن خالد الأسدى وأخاه سلمة قد جمعا جيشاً باغياً يعتزمان الهجوم به على الرسول والمسلمين ، وذلك عند مكان يقال له « قَطَن » ، وهو موضع فيه ماء لبنى أسد فى نجد ، وذلك فى سنة أربع من الهجرة ، وكان أبو سلمة قد تماثل للشفاء ، فاستدعاه النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وكلفه قيادة سرية فدائية ، تسارع إلى تشتيت هذا الجيش قبل هجومه ، ففرح أبو سلمة بذلك فرحاً شديداً ، وعقد له الرسول لواءً ، وأرسل معه مائة وخمسين مؤمناً مضحياً ، وأوصاه بتقوى الله تعالى التى هى حصن المجاهد فى سبيل الله ، كما أوصاه بمن معه من المسلمين خيراً .

وقال له : « اخرج فى هذه السرية ، فقد استعملتك عليها ، فسرْ حتى تأتى أرض بنى أسد ، فأغر عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعهم » فهو يوصيه بملاحظة عنصرين مهمين فى مثل هذه الحركات الفدائية ، وهما سرعة المبادرة ، وسرعة المباغتة للعدو ، وهما أمران يستلزمان الدقة والحذر والكتمان .

وسارع أبو سلمة بالتنفيذ وكأنه ذاهب إلى لقاء عروس ،

وتباعد مع رفاقه عن الطرق المألوفة المطروقة ، وتكتم كل ما استطاع من أمره ، اهتداء بهدى الرسول العظيم الذى يقول : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » . وواصل المسير ليلا ونهاراً ، إلا قليلا من الوقت للراحة ، لأنه كان حريصاً على أن تسبق خطواته أخبارَه ، حتى يفجأ أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المسلمين ؛ وحينما بلغ أبو سلمة موطن المهاجمة قسم سريته إلى ثلاثة أقسام ، فقسم منها يهاجم الأعداء ، وقسم يغير على الإبل والشاء ، وقسم يقوم بالحراسة والحماية وتأمين ظهور المناضلين .

ونجحت الخطة المحكمة ، وظل أبو سلمة ورفاقه يهاجمون أعداءهم ويناوشونهم ، وينزلون بهم ما يستطيعون من خسائر ، ثم يعتصمون بمعاقلهم ، ثم يعاودون فى يوم تالٍ هجومهم ، وظلوا هكذا قرابة شهر فى ميدان التضحية والفداء .

ثم تلاقى الفريقان فى معركة فاصلة ، فأعز الله تعالى جنده ، وأيد عباده ، فنزل الرعب فى صدور المشركين من بطولة أولئك الفدائيين ، فتفرقوا وهربوا ، وخلفوا من ورائهم قدراً كبيراً من الغنم ، وعدداً من الأسرى ، حتى يقول ابن كثير فى السيرة النبوية عن سرية أبى سلمة هذه : « ثم خرج فى سرية ، فغنم منها نعماً ومغنماً جيداً » .

ورجع أبو سلمة ورفاقه بكل ذلك إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، الذى فرح بإقدامهم وشجاعتهم وتوفيقهم فى مهمتهم أكثر مما فرح بالغنائم التى عادوا بها ، فقد دللوا عمليًّا على أنهم

يرضون المنية ، ويأبون الدنية ، وأنهم لا يبالون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم ، ما داموا يدفعون عدواناً ، ويجاهدون كفراناً ، ويؤيدون إيمانا : [أُذِنَ للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لَقدير] .

وعاد أبو سلمة — رضى الله عنه — يتحرق شوقاً إلى معاودة التضحية والفداء من جديد ، ولكن الله تعالى أراد له شيئاً آخر ، فقد انتكس الجرح عند أبى سلمة ، ولم يمكث إلا شهوراً قليلة لحق بعدها بالرفيق الأعلى ، ليلقى عند ربه ثواب الشهداء الأبرار ، وما عند الله خير وأبقى ؛ وكانت وفاته فى شهر جمادى الأولى سنة أربع للهجرة .

ولكن ذكرى أبى سلمة بقيت على مر الأيام ، وبقيت سيرته العاطرة وخطواته الباهرة ، فهو يضىء بأنوار بطولته شعاب المسير إلى ميادين التضحية من أجل الحرية والعزة والكرامة :

[ولا تَهِنُوا ولا تَحْزنوا وأنتم الأَعْلَوْن إن كنتم مؤمنين] .

* * *

ويقيت أم سلمة من وراء أبى سلمة مثالا للمرأة المسلمة الصابرة.

لقد قالت حينما توفى زوجها : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من مسلم تصيبه مصيبة ، فيقول ما أمره الله عز وجل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم آجرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خيراً منها ، إلا أخلف الله له خيراً منها » .

ومضت الأيام ، وتطلع رسول الله عليه الصلاة والسلام فوجد أن أم سلمة قد كبرت فى سنها ، وتوحدت فى حياتها ، ومن حولها أولاد لها يحتاجون إلى رعاية وعناية ، فأراد أن يصون بيت أبى سلمة ، وأن يصون أم سلمة ، وأن يلقى على هذا البيت المؤمن رداء التكريم ، فتزوج أم سلمة ، وبذلك أصبحت إحدى أمهات المؤمنين عليهن الرضوان ، وفرحت أم سلمة بهذا الشرف .

واستقبلت الحياة فى كنف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بالجد والعمل ، حتى قال عنها المطلب بن عبد الله : « دخلت أيم العرب على سيد المرسلين أول العشاء عروساً ، وقامت من آخر الليل تطحن » !

وكانت أم سلمة بعقلها ومشورتها تسهم فى دفع الجماعة المؤمنة إلى طريق النصر والفوز ، ومشورتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم عقب عهد الحديبية مشهورة جليلة .

كما يروى أنه حينما كان الرسول فى طريقه إلى فتح مكة جاءه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أمية ابن المغيرة — وهو أخو أم سلمة — جاءا مهاجرين مسلمين ، فأعرض عنهما الرسول ، فحدثته أم سلمة قائلة : يا رسول الله لا يكون ابن عمك وأخى أشقى الناس بك ، فقد جاءا مسلمين !

فأذن لهما الرسول ، وأسلما وحسن إسلامهما ، ونال أخوها عبد الله الشهادة بعد ذلك فى حصار الطائف ، وكانت

أم سلمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الطائف .

وتوفيت أم سلمة رضى الله عنها فى ذى القعدة سنة تسع وخمسين للهجرة ، وعمرها أربع وثمانون سنة ، وكانت آخر أمهات المؤمنين وفاة ، وصلى عليها أبو هريرة ، ودُفنت فى البقيع .

رضوان الله على أهل هذه الأسرة المؤمنة التى جاهدت فى الله فأحسنت الجهاد : [والذين جاهَدُوا فينا لنَهْدِيَنَّهم سبلَنا وإنَّ اللهَ لمَعَ المحسنين] .

حينما اهتز عرش الرحمن

لموت الشهيد : سعد بن معاذ

لو رجعنا بخيالنا وخواطرنا ، وعبرنا الزمان والمكان ، حتى بلغنا صدر الإسلام ، ورأينا المدينة على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، لشاهدنا الصحابى الأنصارى الجليل سعد بن معاذ يخرج من داره ، لابساً ثياب الجهاد ، ليشارك فى غزوة الخندق ، ولرأينا أمه المؤمنة الماجدة التى رباها الإسلام العظيم على البطولة وحب البطولة ، تقول له حاثةً على الإسراع : « الحق بُنَىَّ فقد والله أخّرت » ! .

ويسارع سعد فيمتطى صهوة جواده ، وينطلق به نحو ساحة الجهاد ، وهو يردد قول القائل :

لبِّث قليــــلا يدرك الهيجا حمل
ما أحسن الموت إذا حان الأجل

وهو يترجم بهذا عن روح التضحية والفداء فى سبيل الله والحق ، فهو يرى أن الموت يحلو ويعلو إذا أقبل ميعاده وكان صاحبه فى موقف مشرِّف يليق به ، ويرفع من شأنه .

ومضى سعد ليدافع عن دين الله ، وأرض عباد الله ، وشاء الله — ولا راد لقضائه — أن يصاب سعد بسهم فى أحد عروقه ، رماه به حيان بن العرقة قائلا : « خذها منى وأنا

ابن العرقة » . فقال له سعد : « عرّق الله وجهك فى النار » .

وكان يهود بنى قريظة قد خانوا عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد أن أمنّهم على حياتهم ، وأخذ منهم المواثيق المغلظة بأن لا يخونوا ولا يغدروا ، ولكنهم أبوا إلا خطة النذالة والدناءة ، فانضموا إلى المشركين أعداء الله والدين ، وتعاونوا معهم على حرب المسلمين ، فخيّل إلى سعد أن السهم الذى أصابه ، وأحدث فيه جرحاً عميقاً ، كانت أجزاؤه ممزوجة بطغيان الشرك ولؤم اليهود من بنى قريظة ، ولذلك دعا سعد ربه تبارك وتعالى فقال : « اللهم إن كنت قد أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى له ، فإنه لا قوم أحب إلىّ أن أجاهدهم ، من قوم آذوا رسولك وكذّبوه وأخرجوه . اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لى شهادة ، ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة » . يقول هذا مع أن هؤلاء كان بينهم وبين سعد نوع من التحالف فى الجاهلية ، ولكن الإسلام أشرق بنوره ، فرفع الله به قوماً ، وخفض به آخرين .

يا لروعة الأبطال ، ويا لسلطان اليقين ! . . هذا مؤمن لا يتقاعس عن الجهاد ، بل يسارع إليه مرحباً بالموت فى ميدانه ، مستعذباً طعمه فى حومة الوغى ، ويبذل فيه ما يبذل من قتاله ونضاله ، ثم يصاب بسهم يفجر فيه الدم ، ويوسع فى جسمه الجروح ، فلا يبالى بجرحه ، بل يدعو ربه أن يبقيه حيًّا إن كان هناك قتال بين الإيمان والكفران ، وأن يطيل أجله

حتى ينتقم من الخونة الفجرة : يهود بنى قريظة ؛ وهو لا يحرص على حياته لمنفعة أو متعة ، بل يحرص عليها ليواصل جهاده وكفاحه ، فإذا ما انتهى الجهاد فهو لا يريد البقاء ، بل يريد الرحيل إلى مستقر الشهداء ؛ ولا عجب فهو من قوم قد صهرهم الإيمان فى بوتقته ، وطبعهم اليقين بطابعه ، حتى استخفوا بالحياة ولم يبالوا بها ، بل انحصرت هممهم وعزائمهم فى بلوغ ما عند الله ، وما عند الله خير للأبرار ، وأعطوا لله وعودهم وعهودهم ، وجعلوها كالأطواق حول رقابهم ، لا يتنكرون لها ، بل يفون بحقها فى صدق ومضاء .

وبعد إصابة سعد بالسهم عالجه الرسول صلى الله عليه وسلم بالكى ، ولكن يد سعد انتفخت بعد ذلك ، وسال منه الدم ، فأمر النبى بأن يعالج فى خيمة « رفيدة » بمسجد الرسول ، وهى امرأة من قبيلة أسلم كانت تداوى الجرحى ممن ليس لهم من يقوم بعلاجهم .

وفيها يقول الشاعر أحمد محرم فى ديوانه : « مجد الإسلام أو الإلياذة الإسلامية » :

رفيدة : علمى الناس الحنانا وزيدى قومك العالين شانا
خذى الجرحى إليك فأكرميهم وطوفى حولهم آناً فآنا
وإن هجع النيام فلا تنامى عن الصوت المردد حيث كانا !

وعاد سعد يدعو ربه قائلا : « اللهم لا تخرج نفسى حتى تقر عينى من بنى قريظة » .

وانتهت غزوة الخندق بلطف من الله ورحمة . ورجعت الأحزاب الكافرة بغيظها لم تنل خيراً ، وسارع النبي إلى محاصرة بنى قريظة لتأديبهم والانتقام منهم ، فلم يسلموا فى أول الأمر ، إذ كانت عندهم مئونة ومتاع ، فهتف على بن أبى طالب على زملائه المجاهدين قائلا : يا كتيبة الإيمان . . . .

ثم تقدم فى الطليعة وهو يقول : « والله لأذوقن ما ذاق حمزة ، أو أقتحم حصنهم » .

ولم يستطع الخونة اللئام إطالة المقاومة فاستسلموا ، وأخذوا يرجون و يتشفعون ، فطلب منهم النبي — بعد أسرهم وتكتيفهم — أن يختاروا لهم من صحابته واحداً ليحكم عليهم بما يراه ، فظنوا أن سعد بن معاذ هو أصلح الناس للتخفيف عليهم ، بحكم ما توهموه من تأثير التحالف الذى كان بينهم وبينه فى الجاهلية ، ناسين أن الإسلام يقطع ما قبله ، فقالوا : اخترنا سعد بن معاذ حكماً .

وكان سعد يرقد فى خيمة « رفيدة » بالمسجد ، فحملوه على دابة ، وجاءوا به إلى موقف التحكيم[1] ، ولما رآه اللئام أخذوا يتزلفون إليه ، ويرجونه التخفيف ، ولما أكثروا عليه قال : « قد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم » .

واستوثق سعد من أن الفريقين سينزلان على حكمه دون

---

(١) يروى أنه حينما جاء قال الرسول لقومه : « قوموا إلى سيدكم » وفى رواية : « قوموا إلى خيركم » .

معارضة ، وهنا قال : « إني أحكم فيهم بأن يقتل الرجال ، وتقسّم الأموال ، وتُسبي الذرية والنساء ، وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار » . وهنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » .

وحينما تساءل بعض الأنصار عن الحكمة فى جعل سعد ديارَ بنى قريظة للمهاجرين دون الأنصار ، أجابهم بهذا الجواب الحكيم العميق الدلالة ، قال : « إنى أحببت أن يستغنوا عنكم » .

وبعد أن انتهى سيد الأوس أبو عمرو سعد بن معاذ من حكمه العادل الحازم عاد يدعو ربه ويرجوه ، فيقول : « اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلىّ من أن أجاهدهم فيك — أى لأجلك — من قوم كذبوا رسولك ، وأخرجوه ، فاللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان قد بقى من حرب قريش فأبقنى حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت قد وضعت الحرب فافجرها (يقصد جراحته) واجعل موتى فيها » .

ولعل سعدًا قد قال هذا فهماً من قول الرسول عند انصرافه من غزوة الخندق : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم ، ولكنكم تغزونهم » . وكذلك كان ، فإن قريشاً لم تعد إلى مهاجمة المسلمين ،ونزل قول الله تعالى: [وكفَى اللهُ المؤمنين القتالَ] .

وجلس سعد على فراشه يفكر . . . ولعله تذكر أنه قد أسلم على يد مصعب بن عمير أول مبعوث فى الإسلام ، والذى أرسله

الرسول قبل الهجرة إلى المدينة ، ليعلم أهل المدينة القرآن وتعاليم الدين ؛ وتذكر سعد كذلك أنه ذهب عقب إسلامه إلى قومه من بنى عبد الأشهل وقال لهم : كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا ، فأسلموا ، فكان سعد من أعظم الناس بركة فى الإسلام ، ومن أنفعهم لقومه .

وتذكر كيف اشترك بالجهاد الصادق المخلص فى غزوة بدر ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق ، وغزوة بنى قريظة ، وتذكر أنه صاحب الكلمة الرائعة التى قالها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين استشار المسلمين فى الإقدام على غزوة بدر :

« يا رسول الله ، قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة لك ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله » .

ويروى أن سعداً قال للرسول أيضاً : « يا رسول الله ، والذى أكرمك وأنزل عليك الكتاب ، لئن سرت حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن لنسيرن معك ، ولا نكون كالذين قالوا لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن

اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما متَّبعون ، ولعل أن تكون خرجتَ لأمر ، وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذى أحدث الله إليك فامض ، فصلْ حبالَ من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحبّ إلينا مما تركت[١] ، وما أمرت به من أمر فأمرُنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرْك[٢] من غمدان لنسيرن معك » ! .

وتذكر سعد أنه الذى قال ذات يوم محقًّا صادقاً: « ثلاث أنا فيهن رجل ، وما سواها فأنا من الناس ، ما سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم حديثاً إلا علمت أنه حق من الله ، ولا كنت قط فى صلاة فشغلت نفسى بغيرها حتى أقضيها (أى أتمها) ، ولا كنت فى جنازة قط فحدثت نفسى بغير ما تقول ويقال لها حتى أنصرف عنها »[٣] .

وقد قال ابن المسيب عن هذه العبارة بعد أن رواها : « هذه الخصال ما كنت أحسبها إلا فى نبى » .

تذكر سعد كلَّ هذا وخُيِّل إليه أن القتال قد انتهى بين

---

(١) أى كان أخذه أحب إلينا من تركه لنا .

(٢) برك الغماد : موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن . وقيل هو أقاصى هجر . وقيل هو فى أقصى اليمن .

(٣) كأنه يقصد حصر تفكيره فى لقاء الميت لربه ، وما يسأل عنه حينئذ وما يجيب به .

المسلمين والكافرين ، فعاد يسأل ربه أن يفجر الدم من جراحته ليكون شهيداً فى سبيل ربه .

واستجاب الله دعاء سعد ، فانفجر الدم من جرحه ، وهو داخل الخيمة ، وسال الدم حتى رآه من رآه ، فنظروا فوجدوا سعداً قد لحق بربه ، رضوان الله عليه .

ويروى أن جبريل جاء إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال له : « من هذا العبد الصالح الذى فتحت أبواب السماء لصعود روحه ، واهتز العرش لقدومها ؟ » يعنى سعداً ، ومن هنا قال الرسول : « اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » . ولذلك يقول القائل :

وما اهتز عرش الله من موت هـــالك
سمعنـــا به إلا لسعـــد أبى عمرو

وقد قال العلماء إن اهتزاز العرش معناه فرح الملائكة بقدومه ، لما رأوا من منزلته .

* * *

وكان سعد رجلا بديناً ضخم الجثة ، ولكنهم حينما حملوا جثته وجدوه خفيفاً ، وقيل إن بعض المنافقين أرادوا التعريض به فقالوا : ما أخفه ! فقال الرسول : « إن له حملةً غيركم من الملائكة » .

وسارت جنازة سعد يشيعها الناس والملائكة ، ولما دفنوه جلس الرسول عند قبره ، وقال : سبحان الله ، مرتين ، فسبّح

معه المسلمون ، وكبر مرتين ، فكبروا معه ، ثم أخبرهم أن القبر ضم سعداً ضمة ، ثم فُرج عنه ، ثم قال الرسول : « إن للقبر ضمة لو كان أحد منها ناجياً لكان سعد بن معاذ » .

ووقفت أم سعد – وهى كبشة بنت رافع الصحابية التى كانت أول من بايعت النبي من نساء الأنصار – وقفت على قبر ابنها وقالت : احتسبتك عند الله عز وجل يا بنى . ثم ندبته ببعض صفاته المجيدة ، فقال الرسول : « كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ » . ثم قال لها : « لا تزيدى على هذا ، ليرقأ دمعك ، ويذهبْ حزنك ، فإن ابنك يضحك الله له » . وهذا كناية عن إقبال الله عليه بالثواب والنعيم .

وقال شاعر الإسلام حسان بن ثابت فى رثاء سعد :

لقد سجمت من دمع عينيَّ عبرةٌ
وحق لعيني أن تفيض على سعد

قتيل ثوى فى معرك فُجعت به
عيونٌ ذوارى الدمع دائمةُ الوجد

على ملة الرحمن ، وارث جنة
مع الشهداء ، وفدُها أكرم الوفد

فإن تك قد ودعتنا وتركتنا
وأمسيتَ فى غبراء مظلمة اللحد

فأنت الذى يا سعد أبت بمشهد
كريم ، وأثواب المكارمِ والمجد

بحكمك في حيَّيْ قريظة بالذي
قضى الله فيهم ما قضيتُ على عمد
فوافق حكم الله حكمك فيهم
ولم تعف إذ ذُكِّرت ما كان من عهد
فإن كان ريب الدهر أمضاك في الألى
شروا هذه الدنيا بجناتها الخلد
فنعم مصير الصادقين إذا دُعوا
إلى الله يوماً للوجاهة والقصد

وعاد حسان يذكره ويذكر معه جماعة من الشهداء فيقول:

ألا يا لقومي ، هل لما حُمَّ دافع ؟
وهل ما مضى من صالح العيش راجعُ ؟
تذكرتُ عصرا قد مضى ، فتهافتت
بناتُ الحشا ، وانهل مني المدامع
صبابة وجد ذكرتنيَ إخوةً
وقتلى ، مضى منهم «طفيل[1]» و «رافع»
و «سعد» فأضحوا في الجنان ، وأوحشت
منازلهم ، فالأرض منهم بلاقع

---

(١) لعله يقصد بطفيل الطفيل بن النعمان الذى استشهد فى غزوة الخندق (كتاب الدرر لابن عبد البر ، ص ١٩٤) . ولعله يقصد برافع رافع بن زيد الذى استشهد فى غزوة أحد ، أو رافع بن مالك الذى استشهد فى غزوة أحد أيضاً (كتاب التحفة اللطيفة للسخاوى ، ج ٢ ص ٥٧ و ٥٨) .

وفوْا يوم « بدر » للرسول ، وفوقهم
ظلال المنايا والسيوفُ اللوامـــع
دعا فأجابوه بحـــقٍّ ، وكلّهم
مطيـع له فى كل أمر وسامع
فما نـــكلوا حتّى توالــوا جماعــة
ولا يقطـــع الآجال إلا المصارع
لأنهمُ يرجـــون منـــه شفاعـــة
إذا لم يكن إلا النبيـــون شافـــع
فذلك يا خير العبـــاد بلاؤنـــا
إجابتنـــا لله والمـــوت ناقـــع
لنا القدم الأولى إليك ، وخلفنـــا
لأولنـــا فى ملـــة الله تابـــع
ونعـــلم أن المـــلك لله وحـــده
وأن قضاء الله لابـــدَّ واقـــع

ويروى أن الرسول أُهديت إليه حُلة من حرير ناعم ، فجعل أصحابه يلمسونها ، ويعجبون من لينها ونعومتها ، فقال لهم الرسول : « أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير منها وألين » ! .

رضوان الله تبارك وتعالى على سعد بن معاذ المجاهد الشهيد الذى اهتزَّ لموته عرش الرحمن ! . . .

أمير السرايا
زيد بن حارثة

وهذا مجاهد فدائى آخر من صدر الإسلام :

إنه أبو أسامة زيد بن حارثة بن شراحيل الكعبى القرشى ، وهو رابع شخص أسلم ، وهناك رواية تقول : إنه أول من أسلم ، ولعل المرادأنه أول من أسلم من الموالى ، فقد سبقه إلى الإسلام خديجة وأبو بكر وعلى ، وقد ذاق زيد فى أول أمره مرارة الأسر والاستعباد ، ثم انتقل إلى خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن وهبته له زوجته السيدة خديجة .

وقد آثر زيد البقاء مع النبى على العودة إلى أهله حرًّا طليقاً ، فقد جاء أخوه جبلة بن حارثة إلى النبى وقال له : يا رسول الله ، ابعث معى أخى زيداً . فأجابه : هو ذا ، فإن انطلق معك لم أمنعه . وهنا قال زيد : يا رسول الله ، والله لا أختار عليك أحداً .

ويروى أن أبا زيد وعمه جاءا إلى النبى وقالا له : يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله ، تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ، جئناك فى ولدنا : زيد عبدك ، فامنن علينا ، وأحسن فى فدائه .

قال النبي : وما ذاك ؟ . قالا : زيد بن حارثة ، نريد افتداءه .

فقال النبي : أوَغير ذلك . ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء .

قالا : لقد زدتنا على الإنصاف .

وأقبل زيد فسأله الرسول : أتعرف هؤلاء يا زيد ؟ قال : نعم ، هذا عمى ، وهذا أبى .

فقال النبي : فأنا من علمتَ ، وقد رأيتَ صحبتى لك ، فاخترنى ، أو اخترهما .

فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت منى بمكان الأب والعم .

فقالا لزيد : ويحك يا زيد ، أتختار الرق على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟

قال : نعم ، إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً .

ثم أعتقه الرسول بعد ذلك .

وزيد هو الصحابى الوحيد الذى ذُكر اسمه فى القرآن الكريم فى سورة الأحزاب ، ولقد آخى النبي بينه وبين عمه حمزة ، وقدمه على ابن عمه جعفر بن أبى طالب فى قيادة الجيش فى غزوة مؤتة ، ولما قال جعفر : يا رسول الله ، ما كنت أرغب أن

تستعمل زيداً على ، قال له : امض فإنك لا تدرى أى ذلك خير .

وكان زيد يوصف بأنه « حِبُّ رسول الله » أى حبيبه ، وأخبر الرسول عنه بأنه كان خليقاً بالإمارة ، وأنه كان من أحب الناس إليه ، وأخبر عمر بن الخطاب بأن زيداً كان أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمر ، وكان الرسول يقول لزيد: « أنت أخونا ومولانا » أى أخونا فى الإيمان وتابعنا وناصرنا . وقال له أيضاً : « يا زيد ، أنت مولاى ومنى وإلىَّ ، وأحب الناس إلىَّ » .

وكثير من الناس لا يشتهر عندهم زيد بن حارثة إلا بأنه صاحب قصة الزواج من السيدة زينب بن جحش رضى الله عنها وبأنه كان أحد القواد فى غزوة مؤتة ، مع أن زيداً كان من خيار المجاهدين الصادقين ، ومن الرماة الماهرين المعدودين المذكورين ، وكان شجاع القلب ، ثبت الجنان فى الحروب .
وهو صاحب الباع الطويل فى سرايا التأديب للأعداء المشركين ، والانتقام منهم ، حتى قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة فى سرية إلا أمّره عليهم » . ولقد قاد زيد ست سرايا حققت الكثير من الأعمال الفدائية البطولية المشكورة .

وبعد انتهاء غزوة بدر بستة أشهر أختاره الرسول عليه الصلاة

والسلام ، وأرسله فى سرية لمهاجمة قافلة للمشركين ، كان فيها أبو سفيان ، ومعه قدر كبير من الفضة ، فهاجمهم زيد عند ماء يقال له « الفردة[١] » من مياه نجد ، واستولى على القافلة بعد أن فر حراسها ، وأسر منهم رجلين ، وعاد بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى ربيع الآخر من سنة ست للهجرة أرسله فى سرية لمهاجمة المشركين من بنى سُليم ، عند جهة تسمى « الجموم»[٢] وقام هو ورفاقه بمهاجمة أعدائهم ، وكسبوا منهم إبلا وغنما وأسرى ، وبعد ذلك بشهر أرسله النبى أميراً لسرية مكونة من مائة وسبعين مجاهداً إلى مكان يسمى « العيص » ، لأن فيه ماء يسمى « ذَنبان العيص » ، وذلك ليهاجموا قافلة للمشركين قادمة من الشام إلى مكة ، واستطاعوا أن يستولوا على القافلة ، وفيها مقدار كبير من الفضة كان يملكه صفوان ابن أمية ، وأسروا بعض رجال القافلة .

وفى الشهر التالى أرسله النبي صلوات الله وسلامه عليه فى سرية عددها خمسة عشر رجلا إلى مكان يسمى « الطَّرْف » على مسافة ستة وثلاثين ميلا من المدينة ، فهاجموا المشركين هناك ، واستولوا على عشرين جملا ، وعلى عدد من الشياه .

---

(١) ضبطها بعضهم بفتح الفاء وكسر الراء ، وقال بعضهم إنها : القردة : بكسر القاف وسكون الراء ، وذكر ياقوت فى معجمه أن ضبط هذا فيه نظر إلى الآن لم يتحقق فيه شيء .

(٢) الجموم أرض لبنى سليم .

وفى الشهر نفسه أرسله النبى صلوات الله وسلامه عليه فى سرية مكونة من خمسمائة مجاهد ، إلى مكان يسمى « حِسْمى » ، وهو وراء وادى القرى ، لينتقموا من المشركين بسبب اعتدائهم ظلماً وبغياً على دحية بن خليفة الكلبى ، وسلبهم أمواله ، وحقق زيد ومن معه ذلك التأديب ، واستولوا على ألف بعير ، وخمسة آلاف شاة ، وعدد من الأسرى ؛ ولكن وفداً من هؤلاء جاء — وقد أسلم — يعلن طاعته للرسول ، ويسأله العفو ، ويرجوه رد المأخوذ منهم ، فرده الرسول عليهم .

وفى الشهر التالى (شهر رجب سنة ست) أرسله النبى فى سرية إلى « وادى القرى » ، وهو واد بين الشام والمدينة ، فيه قرى كثيرة ، وهناك اشتبك زيد ورفاقه مع المشركين المعتدين فى معركة عنيفة . ونال فيها الشهادة بعض المجاهدين ، وأصيب زيد بجراح ، ولكن ذلك لم يفت فى عضده ولا عضد زملائه ، وإن كانوا قد اضطروا إلى الانتظار بضعة أيام حتى تلتئم جراحهم .

وقد أقسم زيد عقب إصابته أنه لن يمس رأسه غسلُ جنابة حتى ينتقم من أعداء الله وأعداء أوليائه ، والتأمت جراح زيد ، فسارع مع رفاقه بالعودة إلى ميدان البذل والفداء ، وكانوا يستترون نهاراً ويسيرون ليلا ، فى دقة ويقظة ومهارة ، حتى فاجئوا أعداءهم فبطشوا بهم ، وأخذوا الثأر منهم .

وكان مع هؤلاء المشركين الآثمين امرأة لعينة مجرمة ، اسمها

« أم قرفة فاطمة بنت زمعة » . وكانت هذه المرأة الشريرة تسب رسول الله صلى الله عليه وسلم سباً فاحشاً ، وزادت فى إجرامها فجهزت ثلاثين مشركاً من أولادها وأولاد أولادها ، وسلحتهم ، وقالت لهم : اذهبوا واغزوا المدينة واقتلوا محمداً .

ووقعت هذه المجرمة فى أيدى المسلمين ، فقتلوها جزاء لإفسادها وردعاً لغيرها ، وعاد المجاهد البطل زيد بن حارثة إلى المدينة ، وذهب إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليخبره بما تم الله على يديه وأيدى زملائه من نصر ، وقرع الباب ، وسمع الرسول صوت زيد ، فسارع إليه من الداخل وهو فى ثياب البيت ، وعانقه وقبّله ، تكريماً له وتقديراً .

وفى شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة اختار الرسول زيداً ليكون القائد الأول لغزوة « مؤتة » . ومؤتة قرية من قرى البلقاء على حدود الشام — وجعل من بعده فى القيادة جعفر بن أبى طالب ، فعبد الله بن رواحة رضى الله عنهما ، وقاتل زيد فى معركة غير متكافئة قتال العمالقة الأبطال ، حتى نال الشهادة ، ملاقياً بصدره الرماح ، مقبلا غير مدبر ، والراية فى يده .

تقول عبارة التاريخ فى تصوير استشهاده :

« قاتل زيد براية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى شاط فى رماح القوم » أى حتى تمزق وتقطع ، وذهب كالشىء المتفرق المحترق ، بسبب كثرة الطعنات فيه ، والعرب تقول :

شاط لحم الذبيحة ، أى تفرق وذهب مقسّماً لم يبق منه شىء .

وكان عمر زيد حينئذ خمساً وخمسين سنة ، وأبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم نبأ استشهاد زيد فى اليوم نفسه ، وتحدث عنه حينئذ وعيناه تذرفان بالدموع ، وكان مما قاله : « أخذ الراية زيد بن حارثة ، فقاتل بها حتى قتل شهيداً » . وبتلك الشهادة من الصادق المصدوق للمجاهد الشهيد ثبتت الجنة لزيد ، فقد أخبر عنه بأنه شهيد ، والشهيد مقره جنات النعيم عند ربه الكريم .

وهكذا توالى تقدير الرسول لزيد ، تكريماً لجهاده وإخلاصه ، فقد أخبر بأنه يحبه ، بل من أحب الناس إليه ، ووصفه بأنه أخوه ، واستخلفه على المدينة فى بعض غزواته ، لأن زيداً شهد غزوة بدر ، وما بعدها من الغزوات حتى استشهد ، إلا غزوة المريسيع ، لأن النبى استخلفه فيها على المدينة ، ودافع عنه بعد موته ، ووصفه بأنه كان الجدير بالقيادة ، وهكذا لا يضيع فضل ولا معروف عند الرسول النبيل الذى يقدر الأعمال ويكرم الأبطال .

بل يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما تحدث عن استشهاد زيد وزميليه قال : اللهم اغفر لزيد (وكررها ثلاث مرات) ثم قال : اللهم اغفر لجعفر ، اللهم اغفر لعبد الله ابن رواحة .

وذرفت عيناه بالدموع . ثم استقبل أسرة زيد ، فلما رأى

بنتاً له تبكى بكى لبكائها ، فقال له سعد بن عبادة : يا رسول الله ، ما هذا ؟

فقال صلوات الله وسلامه عليه : « هذا شوق الحبيب إلى الحبيب ، إنما هى عبرات الصديق يفقد صديقه » !!

ولذلك حق لحسان بن ثابت شاعر الرسول أن يقول في رثائه للشهيد زيد :

عينُ جودى بدمعك المنزور
واذكرى فى الرخاء أهلَ القبور
واذكرى « مؤتة » وما كان فيها
يوم راحوا فى وقعة التغوير [1]
حين راحوا وغادروا ثَمّ زيداً
نعم مأوى الضريك [2] والمأسور
حِبّ خير الأنام طراً جميعاً
سيد الناس ، حبه فى الصدور
ذاكمُ « أحمدُ » الذى لا سواه
ذاك حزنى له معاً وسرورى
إن زيداً قد كان منا بأمرٍ
ليس أمرَ المكذّب المغرور

رضوان الله على المجاهد الفدائى أمير السرايا : زيد بن حارثة!

---

(١) التغوير : التعمق فى الشىء حتى الوصول إلى قعره ، والتغوير أيضاً الطرد والهزيمة ، وكأنه يريد أنها واسعة شديدة .

(٢) الضريك : الفقير السيء الحال .

الفدائى الطامع فى الشهادة

عبد الله بن رواحة

هذا واحد من الرجال الأبطال ، يتألق اسمه وذكره ، ويسمو مكانه وقدره ، بما بذل وضحى ، وقدّم وأهدى. إنه الصحابى الجليل أبو محمد : عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصارى الخزرجى المدنى ، رضى الله عنه . الذى كان يجمع بين الإيمان والبطولة ، والتعبد والجهاد ، والتقوى وصدق النضال .

وهو الذى شهد بيعة العقبة ، وكان أحد نقبائها ، وشهد غزوة بدر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما شهد ما بعدها من معارك وغزوات ، حتى مات شهيداً مجاهداً فى « غزوة مؤتة »[1] التى كانت سنة ثمان من الهجرة . وكان ابن رواحة يعرف القراءة والكتابة بين قلة من الناس يعرفونهما ، ولذلك كانت الكتابة والقراءة من الميزات الملحوظة التى يتحلى بها أصحابها .

ولقد آخى الرسول عليه الصلاة والسلام — عقب الهجرة — بين عبد الله بن رواحة والبطل الإسلامى المظفر : المقداد بن عمرو ، والأبطال ترافق الأبطال ، والرجال تقرن بالرجال ،

---

(١) مؤتة كما سبق : قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام .

والأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف . وما تناكر منها اختلف . وشبيه الشيء منجذب إليه ، كما قال الأولون .

وكان فى عبد الله طاعة مثالية لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ومما يروى أن عبد الله أقبل على المسجد النبوى فى المدينة ، والرسول يتحدث بداخله ، فسمع ابن رواحة رسول الله يقول لمن فى المسجد : اجلسوا . وكان ابن رواحة ما زال خارج المسجد يسعى نحوه ، ولكنه سارع بالجلوس ، وظل مكانه جالساً يسمع ما يقوله الرسول ، ويثبته فى فؤاده ليعمل به ، وينزل على مقتضاه ، حتى انتهى رسول الله من كلامه ، ولما علم الرسول بذلك قال لعبد الله : « زادك الله حرصاً على طواعية الله وطواعية رسوله » .

وحق لعبد الله بن رواحة أن يسارع إلى طاعة النبى هذه المسارعة ، فقد اختلط بلحمه ودمه ، وقلبه وعقله ، أن رسول الله هو السراج المنير ، وهو خير قدوة وأفضل أسوة ، ولذلك قال فيه مما قاله فيه :

وفينا رسول الله نتلو كتابه
إذا انشق معروف من النور ساطعُ
يبيت يجافى جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
أتى بالهدى بعد العمى ، فقلوبنا
به موقنات أن ما قال واقع

وحق لعبد الله بن رواحة أن يطيع الرسول هذه الطاعة ، فقد كان يعلم حق العلم أن الرسول مبلغ عن ربه : [وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى] ، وأن استحضار جلال الله فى الفؤاد هو توطيد لدعائم الإيمان ، ولذلك يروى أن عبد الله قال لصاحب له : تعال بنا حتى نؤمن ساعة .

فقال له صاحبه وهو يحاوره : أولسنا بمؤمنين ؟

فأجاب عبد الله قائلا : بلى، ولكنا نذكر الله فنزداد إيماناً .

ويروى أن أبا الدرداء قال : أعوذ بالله من يوم يأتى لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة ، كان إذا لقينى قال : يا عويمر ، اجلس فلنؤمن ساعة ، فنجلس فنذكر الله ما شاء الله . ثم يقول : يا عويمر ، هذا هو الإيمان .

ولعله كان يتذكر حينئذ قول ربه سبحانه : [الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب] .

ويروى أن الأنصار حينما بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة كانوا سبعين نفساً ، وفى هذه الليلة قال ابن رواحة : يا رسول الله ، اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة . قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل[1] ،

---

(١) لا نقيل : لا نفسخ البيع . ولا نستقيل : لا نطلب الفسخ .

فنزل قول الله تعالى: [إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأَمْوَالَهُم بأَن لهم الجنةَ ، يقاتِلون فى سبيل الله فَيَقْتلون ويُقْتَلون وعدًا عليه حقًّا فى التوراةِ والإنجيل والقرآن، ومن أَوْفَى بعهدهِ مِنَ اللهِ ، فاستبشروا ببيْعِكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوزُ العظيم] .

ولقد مر أعرابى والرسول يقرأ هذه الآية ، فقال الأعرابى : كلام من ؟ قال النبي : كلام الله عز وجل، فقال الأعرابى : والله بيع مربح ، لا نقيله ولا نستقيله . ثم خرج إلى الغزو فاستشهد .

* * *

وكان عبد الله بن رواحة أحد الشعراء المحسنين الذين يجيدون ردّ الأذى بشعرهم عن الرسول والإسلام والمسلمين ، حتى قال الزبير بن العوام : « ما رأيت أحدًا أجرأ ولا أسرع شعراً من ابن رواحة » . وهذا لون من الجهاد يزكيه الإسلام ، وينوه بشأنه رسول الله عليه الصلاة والسلام الذى يقول : « المؤمن يجاهد بلسانه وسيفه » .

وابن رواحة هو صاحب النشيد الإسلامى الجهادى البطولى ، الحاث على الإقدام والثبات ، وإباء الذل والهوان ، وقد صاغه للمؤمنين يرددونه ، وهم يستعدون لغزوة الخندق ، وفيه يقول :

لاهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فانزلـــن سكينـــة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ولقد كان لشعر ابن رواحة وقع السهام فى نفوس المشركين، ومن شعره يخاطب هؤلاء مسفهاً شركهم، ومعتزاً بتوحيده، قوله:

عصيتم رسول الله ، أف لدينكم
وأمركم السيء الذى كان غاويا
فإنى وإن عنفتمونى لقـائل :
فدى لرسول الله أهلى وماليا
أطعناه لم نعدله فينا بغـيره
شهاباً لنا فى ظلمة الليل هاديا

ولقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبيات قال فيها :

يا هاشم الخير ، إن الله فضلـكم
على البرية فضلا ما له غـيَرُ
إنى تفرست فيك الخير أعرفـه
فراسة خالفتهم فى الذى نظروا
ولو سألت أو استنصرت بعضَهم
فى جل أمرك ما ردوا ولا نصروا
فثبّت الله ما آتاك من حسن
تثبيت موسى ، ونصراً كالذى نصروا

ولما سمع الرسول هذا الشعر منه قال له : « وإياك فثبّت الله » !

وحينما دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة سنة « عمرة القضاء » كان عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقة الرسول وهو يطوف حول الكعبة ويقول :

باسم الذى لا دينَ إلا دينُه　　باسم الذى محمدٌ رسوله

ثم يرفع صوته ويقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله　　خلوا فكل الخير فى رسوله
خلوا بنى الكفار عن سبيله　　قد نزل الرحمن فى تنزيله
بأن خير القتل فى سبيـــله　　نحن قتلناكم على تأويله
يا رب إنى مؤمن بقيـــله　　أعرف حقّ الله فى قبوله
قد نزل الرحمن فى تنزيـــله　　فى صحف تتلى على رسوله
فاليوم نضربكم على تأويله　　كما ضربنـــا على تنزيـــله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله　　ويذهل الخليل عن خليله !

ويروى فى تاريخ عبد الله بن رواحة أنه خرج إلى الجهاد فى إحدى المرات ، ومعه غلام له ، فأخذ ابن رواحة يخاطب ناقته بشعر يحدثها فيه بأنها مشكورة مأجورة لو حملته إلى موطن الشهادة ، فيقول :

إذا أدنيتنى ، وحملت رحلى　　مسيرة أربع بعد الحساء[1]
فشأنك أنعم ، وخلاك ذم　　ولا أرجعْ إلى أهلى ورائى[2]

---

(١) الحساء : مكان يجمع فيه الماء .
(٢) يريد أنه يريحها ، ولا يكلفها عناء السفر بعد ذلك .

وجاء المسلمـــون وغادرونى بأرض الشام مشتهى الثّـواء[١]
وردّك كل ذى نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالى طلع بعل[٢] ولا نخل أسافيها ورائى !

فبكى الغلام حينما سمع هذا الشعر ، فزجره ابن رواحة ، وقال له : ما عليك يا لكع أن يرزقنى الله الشهادة ، وترجع بين شعبتى الرحل ؟ !

* * *

ولقد عوّد الرسولُ صلوات الله وسلامه عليه ابنَ رواحة الحرص على الجهاد منذ وقت مبكر ، وتفضيله — عند وجوبه — على طاعة أو عبادة ، ومن شواهد ذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام جعله قائداً لإحدى السرايا البطولية ، ووافق ذلك يوم جمعة ، فأمر ابنُ رواحة جنودهُ بالمسير ، وأخبرهم أنه سيلحق بهم بعد قليل .

ثم قال فى نفسه : أتخلف عنهم قليلا ، وأصلى الجمعة مع رسول الله ثم ألحقهم ، فلما صلى الجمعة رآه النبى ، فقال له : ما منعك أن تغدو مع أصحابك ؟

فقال عبد الله : أردتُ أن أصلى الجمعة معك ثم ألحقهم ، فقال له النبى : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما أدركت

---

(١) لا يريد رجوعاً .

(٢) البعل من النبات ما يشرب بعروقه من الأرض .

غدوتهم » . ثم أضاف قوله : « لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها » .

ولذلك نرى ابن رواحة بعد ذلك يضرب القدوة الطيبة فى غزوة « مؤتة » التى جعل فيها النبى زيدَ بن حارثة قائداً للجيش ، وقال : « فإن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب [1] على الناس ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة على الناس ، فإن أصيب ابن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه عليهم » .

ولما جاء الرسول ليودع القادة والجيش بكى عبد الله بن رواحة ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فأجاب : أما والله ما بى حبّ الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار ، وهى : [وإنْ منكم إلا واردُها كانَ على ربك حَتْماً مقضِياً] فلم أدر كيف لى بالصدور بعد الورود . فقال المسلمون : صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين .

وترجم ابن رواحة عن نزعته الفدائية فقال فى هذا الموقف :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة
وضربة ذات فرغ [2] تقذف الزبدا

---

(١) مر علينا حديث زيد بن حارثة ، وهذا حديث ابن رواحة ، ويمكن أن تراجع حديث جعفر بن أبى طالب فى الجزء الأول من كتاب « بطولات إسلامية وعربية » .

(٢) الفرغ : السعة .

أو طعنةً بيدى حرّان[١] مجهزةً
بحربـــة تنفذ الأحشـــاء والـــكبدا
حتى يقال — إذا مروا على جسدى — :
يا أرشد الله من غاز ، وقد رشـــدا

ومضى الجيش فى طريقه . . .

ولما عرف أفراده أن عدد أعدائهم أضعاف أضعاف عددهم أخذوا يتشاورون ، وقالوا فيما قالوا : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

فانبرى عبد الله بن رواحة مسرعاً ، كأنه ليث ثائر هائج ، وأخذ يدعو إلى الإقدام والتضحية والفداء ، ويقول : يا قوم ، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة[٢] .

فقال المؤمنون : قد — والله — صدق ابن رواحة .

---

(١) الحران : الشديد .

(٢) هناك كلمة تشبه هذه الكلمة ، قالها مالك بن سنان فى غزوة أحد ، وهى : « نحن والله بين إحدى الحسنيين ، إما أن يظفرنا الله بهم ، فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى : يرزقنا الشهادة ؛ والله ما أبالى أيهما كان ، إن كلا لفيه الخير » .

ومضى الجيش إلى غايته ، وبدأت المعركة بين القلة القليلة المؤمنة ، والكثرة الكثيرة الباغية، وذاق الشهادة زيد وجعفر ، ثم تقدم عبد الله بن رواحة فأخذ الراية ، وجعل يتردد بعض التردد ، ولكنه سرعان ما أقام نفسه على الصراط ، ودفع بها إلى الأمام ، وهو يقول :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنَّه لتنزلن ، أو لتُكرَهنَّه
إن أجلب الناس وشدوا الرّنه ما لى أراك تكرهين الجنه
قد طالما قد كنت مطمئنه هل أنت إلا نطفة فى شَنَّه ؟

ثم يقول لها :

يا نفس ، إلا تُقْتلي تموتى هذا حِمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلى فعلهما هُدِيت

وهو يقصد رفيقيه ، وهما زيد وجعفر .

وأقبل ابن رواحة على القتال بشجاعة وثبات ، وحدثت فترة فى المعركة ، فجاءه شخص بعرق لحم ، وقال له : شُدَّ بهذا صلبك ، فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت . فأخذه ابن رواحة ، وقضم منه قضمة ، ولكنه سمع حركة قتال قد جدت ، فقال مستنكراً : وأنت فى الدنيا ؟! .

ثم ألقاها من يده ، وسارع إلى الميدان فقاتل حتى قُتل ... مضى على طريق صاحبيه ، ونال ما نالاه من فضل الله عليهما بنعمة الشهادة ، فانتقل معهما إلى حياة أعز وأبقى : [ولا تقولوا

لمن يُقتل فى سبيل الله أموات بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون] .

وتحقق دعاء الرسول لابن رواحة ، فقد دعا له فقال : « ثبتك الله » وقد ثبته الله حتى مات شهيداً مجيداً ، وتحقق فيه قول ربه تعالى : [يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون] .

وإذا كان ابن رواحة لم يعقب ولم يكن له ولد . فإن ذكره لم ينقطع ، وقدره لم يضع ، بل تألقت على الأيام سيرته ، وظل تاريخه علماً ومشعلا على الطريق ، ينير الشعاب والدروب للذين يريدون أن يعيشوا أحراراً ، أو يموتوا كراماً .. .

فرضوان الله على المجاهد الذى طمع فى الشهادة فنالها ففاز بالرضى والرضوان .

الشهيد والد الشهداء

ثابت بن قيس

قد يخيل لبعض قصار النظر أو ضعاف الفكر ، أن رجل الجهاد الفدائي المؤمن رجل لا يحسن غير السلاح يتدرب عليه ، ويتقن استعماله ، ثم يمضي به إلى المعركة ، ليضرب ذات اليمين وذات الشمال ، ليذيق أعداءه الموت الزؤام ؛ وأنه ليس من الضروري للفدائي سوى هذا الاقتدار الفني الحربي في ميدان التضحية والفداء .

ولكن إذا جاز مثل هذا في عرف هؤلاء أو أولئك من الناس ، فإنه لا يصح مثله في هدى الإسلام ، ولا يُعرف مثله في تاريخ السلف الصالح من المسلمين ، فالفدائي من هؤلاء الأكرمين كان جنديًّا ، وكان في الوقت نفسه عالماً عاملا تقيًّا ، وكان في الوقت نفسه إنساناً طهورًا زكيًّا .

وهذا واحد منهم يزينه دينه وعلمه وفهمه وعمله وأخلاقه ، وهو الصحابي الجليل أبو عبد الرحمن ثابت بن قيس بن الشماس الأنصاري ، الذي كان يجمع فيما يجمع بين صفات أربع ، كل صفة منها حميدة مجيدة ، فهو أولا صاحب بلاغة في البيان والخطابة ، وهو ثانياً صاحب توقير رائع لمكانة الرسول

عليه الصلاة والسلام ، وهو ثالثاً صاحب جهاد وتضحية حتى الشهادة ، بلا تردد أو فرار ، وهو رابعاً صاحب روح طاهرة ونفس نقية ، مما يجعله أهلا للكرامة تبدو منه فى حياته وبعد مماته ، والله ذو الفضل العظيم .

لقد كان يقال لثابت بن قيس : خطيب الأنصار ، وخطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جهير الصوت ، وهو الذى وقف يخطب ، وهو يستقبل النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة حينما هاجر إليها ، فأحسن المقال وأحسن الاستقبال ، وهو صاحب العبارة النبيلة الجليلة التى قالها يومئذ : « يا رسول الله ، إنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا » .

ولما أخبرهم الرسول بأن لهم فى مقابل ذلك نعيم الجنة ، فرح ثابت وقومه ، وقالوا : رضينا رضينا .

وحينما جاء وفد تميم للقاء النبى فى عام الوفود سنة تسع من الهجرة ، قال الوفد للنبى : جئنا نفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا. وأذن الرسول ، وتكلم خطيبهم ، فلما انتهى قال النبى صلى الله عليه وسلم لثابت : يا ثابت ، قم فأجبه ، فقام وأجاب ، وبلغ مبلغه من الصواب .

وكان مما قاله فى صدر خطبته : « الحمد لله الذى السموات والأرض من خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يك شىء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا أئمة ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، هو أكرمهم نسباً ،

وأصدقهم حديثاً ، وأفضلهم حسباً ، فأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فآمن به المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، وهم أكرم الناس أحساباً ، وخيرهم فعالا ، ثم كنا نحن الأنصار أول الخلق إجابة ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله » .

ثم قال : « نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً ، أقول هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم» .

* * *

وهذا الصحابى الخطيب البليغ هو نفسه الذى نراه بعد ذلك يكاد يذوب خوفاً من ربه تبارك وتعالى ، وإجلالا لمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لما نزل قول الله سبحانه : [ياأيها الذين آمنوا لاَ تَرْفَعوا أصوَاتكم فوقَ صوتِ النبى ولا تَجْهروا له بالقول كجهْرِ بعضِكم لبعض أن تحبَطَ أعمالُكم وأنتم لا تشعرون] سمع ثابت ذلك وهو فى الطريق ، فجلس يبكى ويقول : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى صلى الله عليه وسلم ، وأجهر له بالقول ، حبط عملى ، أنا من أهل النار .

ومر عليه صحابى فسأله : ما يبكيك يا ثابت ؟ فأجابه :

تبكيني هذه الآية (وتلاها) . ثم قال : أخاف أن تكون قد نزلت فيّ ، وأنا رجل جهير الصوت .

ثم ذهب ثابت إلى بيته ، ودخل غرفته ، وأمر زوجته — جميلة بنت عبد الله — بأن تغلق عليه الباب بمغلاقه ، وأن تشد إغلاقه بمسمار تدقه فيه ، ولا تفتحه إلا إذا جاءه أحد من عند رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وعلم الرسول بأمر ثابت حين تفقده وسأل عنه ، فبعث إليه من يقول له : « إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة » . فخرج ثابت من محبسه ، وجاء إلى رسول الله مستبشراً ، فسأله الرسول عن أمره ، فأجاب بقوله : يا رسول الله لقد نزلت هذه الآية ، وإني رجل جهير الصوت ، فأخاف أن يكون قد حبط عملي ، فقال له الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « أما ترضى يا ثابت أن تعيش حميداً ، وتموت شهيداً ، وتدخل الجنة » ؟

فطار ثابت فرحاً بهذا الخبر السعيد ، وقال : رضيتُ ببشرى رسول الله . وكان الصحابة بعد ذلك ينظرون إلى ثابت ويقولون : هذا رجل من أهل الجنة يمشي بيننا . وحفظ ثابت تبعات هذه البشرى ، بإخلاصه وعبادته ، ونضاله وكفاحه .

وكان ثابت صريحاً في حديثه مع الرسول إلى أبعد حدود الصراحة ، وكان ينقد نفسه بوضوح فيما يظن أنه عيب أو خطأ ، ومن شواهد ذلك أنه جاء إلى النبي وقال له : يا رسول الله ،

إنى أخشى أن أكون قد هلكت : ينهانا الله أن نحب أن نُحمد بما لا نفعل ، وينهانا عن الخيلاء ، وإنى امرؤ أحب الجمال ، وينهانا أن نرفع أصواتنا فوق صوتك ، وأنا رجل رفيع الصوت .

فطمأنه الرسول وأفهمه أن محبة الحمد بالفعل الكريم غير حب الحمد عن طريق الادعاء ، وأن الخيلاء والزهو غير محبة الشيء النظيف والثوب الجميل وما أشبه ذلك ، وأن رفعه لصوته كان لضرورة ، ولم يقصد به إيذاء النبى عليه الصلاة والسلام ، ثم أعاد النبى له تبشيره بالجنة .

وإذا كان ثابت بن قيس قد شهد غزوة أحد وما بعدها من غزوات ، وناضل فيها نضال الرجال ، وثبت فى ميادينها ثبات الأبطال ، فإنه أراد أن يحقق قول الرسول له : « وتموت شهيداً » بعد أن حقق قوله : « تعيش حميداً » . فحينما رأى ثابت تقهقر بعض المسلمين المقاتلين فى معركة « اليمامة » غضب من ذلك ، وتألم له ، ولبس كفنه بعد أن وضع الحنوط على جسمه ، وهو الطِّيب الذى يوضع فى جسم الميت ، ويقال : تحنط الرجل ، إذا استعمل الحنوط استعداداً وتأهباً للموت ، وكان هذا من عادة جماعة من الصحابة فى الغزوات ، رضوان الله عليهم .

وحمل ثابت سلاحه ، وأقبل إلى الميدان عازماً على الثبات والجهاد حتى الاستشهاد ، وقال :

« اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء (يعنى الكافرين) أف لهؤلاء وما يعبدون ، اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعنى المتقهقرين) أف لهؤلاء وما يصنعون، يا معشر الأنصار ، خلوا سنى (افسحوا طريق) ، لعلى أصلى بحرها ساعة . بئسما عودتم أقرانكم ، وبئسما عودتم أنفسكم ، ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ودخل حومة الوغى ، وظل يقاتل ويناضل ، حتى سقط شهيداً عليه رضوان الله ، وكان ذلك سنة إحدى عشرة للهجرة .

ويروى أن ثابت بن قيس انضم إليه سالم مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يحمل راية المهاجرين ، وحفرا لنفسيهما حفرة تبلغ وسط جسميهما ، ونزلا فيها ، وملآها بالرمال حتى غطت وسط كل منهما ، وأخذا يضربان منها ويرميان ، وهما ثابتان لا ينتقلان ، وفعلا الأفاعيل فى ضرب أعداء الله ، حتى سقطا شهيدين فى سبيل الله .

* * *

وأراد الله جل جلاله أن تظهر كرامة لثابت بعد موته ، فقد رأى بعضُ الصحابة ثابتاً فى النوم عقب استشهاده ، فقال له ثابت : إنى قُتلت بالأمس فمر بى رجل فأخذ درعى . وأرشده ثابت إلى مكان الدرع بالتحديد ، وكلفه بأن يذهب إلى خالد بن الوليد قائد الجيش رضى الله عنه ، ويطلب إليه

استحضار الدرع ، وبأن يذهب إلى أبى بكر الخليفة رضى الله عنه ، ويطلب إليه أن يقضى دَيْنه الذى حدده ، وأن يعتق عبده الذى تركه .

واستجاب خالد فبحث عن الدرع فوجدها حيث وصف ثابت ، وأنفذ أبو بكر وصية ثابت تكريماً له ، ولذلك قال مالك بن أنس : لا أعلم وصية أوصى بها صاحبها بعد موته ، وأجيزت ، ألا وصية ثابت بن قيس .

وهكذا يكون تكريم الله عزت قدرته ، للأخيار المجاهدين المناضلين من عباده ، ولا غرو فقد ثبت فى صحيح الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « نعم الرجل ثابت بن قيس » .

وإذا كانت الأرض الطيبة تنبت الزرع الطيب ، وكان الأصل النبيل منبعاً للفرع الجليل . فإن ثابتاً قد ترك من خلفه ثلاثة أبناء هم : محمد ويحي وعبد الله ، وقد ساروا على طريق أبيهم فى الجهاد والبذل والفداء ، فماتوا جميعاً شهداء فى موقعة « الحرة » ، فوصفهم التاريخ بأنهم شهداء أبناء شهداء :

[ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم] .

الشهيد الحى

طلحة بن عبيد الله

حين تجتاز الأمة مرحلة خطيرة من تاريخ نضالها مع أعدائها الذين يتربصون بها الدوائر عن يمين وشمال ، تتطلب الكثير من ألوان القوة والاستعداد ، ومن بين هذه الألوان : القدوة الطيبة الرائعة ، التى تجذب ببهائها ، وتهدى بسناها ، وما أحوجنا إلى أن نقلب صفحات تاريخنا المؤمن، نتلمس منه مواطن القدوة، ومشاهد الأسوة، لعل الله جل جلاله يبعث الهامد، ويحرك الجامد، ويأخذ بالنواصى إلى منهج الأوائل البطولى المؤمن ، ولن يصلح أمر هذه الأمة فى حاضرها إلا بما صلح به فى أولها : [فعَسَى اللهُ أَنْ يأْتِىَ بالفتْح أَو أَمرٍ من عِنْدِه] وهو سبحانه على كل شىء قدير .

وهذا مثل من السابقين يحتذى به ويرجع إليه :

إنه الصحابى الجليل أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان رضى الله عنه ، الشهيد الحى الذى سبق فى التاريخ ، وشهد عصر النبوة الطاهر العاطر ، وخلف من ورائه الذكر الحميد المأثور .

إنه أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام فى أوله ، فكان أحد

أفراد الطليعة المباركة التي كان الواحد منها يوزَن بألف ، ومنذ عمر الإيمان قلبه ظل وفيًّا لعهده ، ماضياً فى طريقه ، لا يغدر ولا يخون ، ولا ينحرف ولا يمين ، حتى لقى ربه الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا .

إنه أحد العشرة المبشَّرين بالجنة على لسان النبوة الصدوق الطهور ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، كما أخبرنا عمر الفاروق رضوان الله عليه .

ولقد أسلم طلحة على يد أبى بكر ، وهو ابن عمه ، وأبو بكر هو الرجل المبارك السبّاق إلى الخيرات عليه رضوان ربه ، ولما ذهب طلحة مع أبى بكر ، ونطق بالشهادتين أمام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وخرجا من عنده ، هاجمهما نوفل ابن خويلد مع بعض أتباعه ، وكان طاغية متجبراً ، وله عصبيته القوية بين أهله ، حتى كان يقال له : « أسد قريش » ، وربطهما فى حبل واحد ، تعذيباً لهما من أجل إسلامهما .

ولذلك كان أبو بكر وطلحة يقال لهما : « القرينان » . وأكرمْ بها من تسمية خلدت ذكرى احتمالهما العذاب والابتلاء فى سبيل الله عز وجل .

ووقف طلحة بعد إسلامه إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يهتدى بهديه ، ويأتمر بأمره ، ويستجيب لرغبته ، فكأنه الآلة الدائرة المسخرة المهيأة المطوّعة التى لا تتأبى على أى

عمل من أعمال الطاعة أو الخير .

وجاء وقت الهجرة ، فنال طلحة شرف الهجرة من مكة إلى المدينة إيماناً واحتساباً ، فكان من المهاجرين السابقين الأولين ، وآخى النبي بمكة قبل الهجرة بين طلحة والزبير بن العوام ، ثم بالمدينة بينه وبين أبى أيوب الأنصارى ، كما يقول السخاوى فى كتابه « التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة » ، ويذكر النووى فى كتابه « تهذيب الأسماء واللغات » أن الرسول آخى بين طلحة وسعد بن أبى وقاص ، رضوان الله على الجميع .

ولمح رسول الله عليه الصلاة والسلام مخايل الإخلاص والصدق واليقين فى طلحة ، فأخذ يختاره لجلائل المهمات ، وعظائم التبعات ، فكلفه مثلا مع سعيد بن زيد بأن يتابعا تحركات قافلة المشركين قبيل غزوة بدر ، فقاما بالمهمة خير قيام ، بلا غش ولا تزيد ولا خداع ، وحينما بدأت غزوة بدر كان طلحة غائباً فى عمل من أعمال الخير التى تعاون على تحقيق المنعة والقوة للمسلمين ، فلم يستطع شهود الغزوة ، ولكن الرسول قدر إخلاصه ووفاءه ، فجعله كمن شهدها ، وأعطاه منها سهمه ، وأخبره بأن له مثل ثواب أهلها .

ويا لها من مكانة سامية ، حين يبلغ المؤمن المخلص فى نضاله وإخلاصه ما يجعله حاضراً وهو غائب .

ولقد روى عن الإمام على رضى الله عنه أن أحد المجاهدين معه قال له بعد إحدى المعارك : وددتُ أن أخى فلاناً كان

شاهدنا ، ليرى ما نصرك الله به على أعدائك ، فقال له الإمام : أهوَى أخيك معنا ؟ . فقال : نعم . قال الإمام : فقد شهدنا .

وليس المهم هنا هو أن يأخذ طلحة مالا أو يحوز كسباً ، وإنما المهم هو ما يدل عليه هذا التقدير النبوى من تشريف وتكريم ، فقد كان طلحة رجلا تاجراً ، وكان يكسب الكثير الطيب ، وكان يسهم بالجليل العظيم من مكاسبه فى نصرة الإسلام ، ومعاونة المجاهدين ، وتأييد معركة الحق والإيمان ضد الباطل والكفران .

ثم شهد طلحة غزوة أحد وما بعدها من الغزوات والمشاهد ، وفى غزوة أحد هذه ظهرت دلائل مؤكدة لإيمان طلحة ويقينه ، وصدقه فى الجهاد ، ورغبته فى الاستشهاد ، وكان أحد أربعة وصفتهم السيرة العاطرة بأنهم أبلوا بلاء حسناً فى غزوة أحد ، وهم : على بن أبى طالب سيف الله الغالب ، وحمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء ، وأبو دجانة صاحب عصابة الموت ، وطلحة بن عبيد الله الشهيد الحى .

وقاتل طلحة فى أول المعركة ما قاتل ، وحينما أقبلت ساعة الهول ، وتحول الانتصار إلى انكسار ، ثبت طلحة إلى جوار الرسول مع القلة التى ثبتت ، لم يفر ولم يتراجع ، بل ظل يقاوم ويدافع ، ويحرص مع قلة الصادقين الصابرين على حراسة النبى ، وصد كل عدوان عنه .

وحينما سقط النبى صلى الله عليه وسلم فى إحدى الحفر ،

والسيوف والرماح والنبال والسهام تتجاوب وتتراشق عن يمين وشمال ، سارع طلحة فاحتضن رسول الله ، وظل محتضناً له حتى خرج الرسول من الحفرة ، وعاد إلى وقفته الثابتة المناضلة ، وتعددت الإصابات فى جسم النبى الكريم ، برغم الجهد الكبير الذى بذله مثل طلحة بن عبيد الله ، وكان على الرسول درعان ، وبه تعب ، فأراد أن يعتلى صخرة ، ليشرف من فوقها على سير المعركة ، ولكنه لم يستطع أن يعلوها ، فانحنى له طلحة ، وصعد الرسول فوق ظهره ، ثم ارتفع به طلحة شيئاً فشيئاً ، حتى بلغ الصخرة ، واستوى عليها ، وظل طلحة يناضل ويقاوم .

وحينما رأى طلحة ضربة أثيمة موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سارع فوقى الرسول منها بيده ، فأصابها الشلل ، وقطعت إحدى أصابعها ، وهنا قال سيد الخلق الناطق بالصدق : « أوجب طلحة » أى فعل ما يوجب له الجنة عند ربه عز وجل .

وتكاثرت الجراح فى جسم طلحة يومئذ ، حتى أصابه بضع وسبعون ، ما بين ضربة بسيف ، وطعنة برمح ، ورمية بسهم ، وأجهده نزيف الدم من جسمه ، وحينما دنا أبو بكر وأبو عبيدة من الرسول ليعالجا ما أصاب وجهه الكريم من جراح ، أشار لهما إلى طلحة ، وقال لهما : « عليكما بصاحبكما ، دونكما أخاكم » ! ..

وفى أعقاب المعركة أصيب طلحة بإغماء من جراء إصابته

الشديدة ، فصب أبو بكر الماء على وجهه ، فاستفاق ، وما كاد يسترد وعيه حتى قال أول ما قال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأجابه أبو بكر : إنه بخير . ففرح طلحة وقال : الحمد لله ، كل مصيبة بعده جلل (أى قليلة) .

وهكذا يكون صدق الحب لرسول الله ، وإخلاص الجهاد فى سبيل الله ، ولذلك كان أبو بكر رضى الله عنه إذا جاء ذكر ليوم أحد يقول : « ذلك يوم كان كله لطلحة » !

* * *

ثم يقبل التكريم النبوى العظيم لهذا الحرص النبيل من طلحة على صدق الجهاد ، وهذا التعرض البطولى لمواطن الاستشهاد ، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله » .

ولقد جرى العرف بيننا على أن نطلق كلمة « الشهيد الحى » على من تعرض لموقف التضحية بالنفس فى موطن من مواطن الجهاد والاستشهاد ، ولكن الأقدار أبقت حياته برغم تمنيه الشهادة ، وتطلبه ما عند الله عز وجل ، ولقد يخيل لبعضنا أن هذا تعبير طريف مستحدث ، ولكنه كما يبدو لنا الآن مقتبس من ضوء النبوة العظمى على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وهذه هى الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبى بكر رضوان الله عليهما تروى عن رسول الله أنه قال : « طلحة ممن

قضى نحبه وما بدلوا تبديلا » . أى من الشهداء ، لأن النحب هو النذر ، وقضى فلان نحبه . أى أدى نذره ، وحقق وعده .

وتلك إشارة من الرسول عليه الصلاة والسلام إلى قول الله جل جلاله : [مِنَ المؤْمنين رجالٌ صَدَقُوا ما عاهدُوا اللهَ عليه ، فمنهم من قَضَى نَحْبَه ، ومنهم من ينتظر ، وما بَدَّلُوا تبديلا] .

ولنذكر جيداً أن هذه الآية جاءت عقب آية سابقة لها تقول : [ولما رَأى المؤمنون الأحزابَ قالوا : هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُه ، وصَدَقَ اللهُ ورسولُه ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليما] .

وروت السنة النبوية أن أعرابياً سأل رسول الله عمن قضى نحبه ، وبعد قليل من السؤال أقبل طلحة ، فقال النبي : «أين السائل عمن قضى نحبه ؟ »

قال الأعرابى : أنا يا رسول الله .

فأشار النبى إلى طلحة وقال للسائل : « هذا ممن قضى نحبه ».

وكذلك قال عليه الصلاة والسلام : « طلحة والزبير جاراى فى الجنة » . وأكرمْ بها من بشرى ، وأنعمْ به من جوار ينال به طلحة نعيم الخلود وشرف الأبد ، حين يجاور فى الفردوس الأعلى إمامَ الأنبياء وسيد المرسلين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

* * *

وحينما تهيأ المسلمون لغزوة « تبوك » فى وقت عسرة وشدة وجدب وقحط ، ظهر اللؤم اليهودى الخسيس ، حيث اجتمع نفر من المنافقين فى دار « سويلم اليهودى » ، وكانت عند بئر يقال لها « جاسوم » .

وتآمر الأخساء ضد المسلمين ، وأخذوا يحرضون من يستجيب لهم على ترك الخروج مع الرسول للجهاد ، فبعث النبي طلحة ومعه بعض المسلمين ، فأشعلوا النار فى وكر الفتنة وعش المؤامرة ، وهو بيت ذلك اليهودى الخئون ، فكان هذا العقاب التأديبى ردعاً وزجراً لأمثاله من سلالة القردة والخنازير ..

وكان طلحة مع هذا رجلا نقى القلب صافى النفس ، يفرح للخير يناله أى أخ له فى الإسلام ، ولذلك نراه يفرح حينما تاب الله تبارك وتعالى على كعب بن مالك ، وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا فى غزوة تبوك ، وقد قص الله علينا قصتهم فى سورة التوبة .

وجاء كعب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب نزول قبول توبته عند الله عز وجل ، فسارع طلحة إلى كعب ، وحياه وهنأه بفضل الله عليه ، مما أثر فى نفس كعب حتى قال وهو يروى قصته : « والله ما قام إلىّ رجل من المهاجرين غيره » . وكان كعب لا ينسى لطلحة هذا الصنيع .

* * *

وإلى جوار هذا كان طلحة رجلا يحسن عمل الدنيا ويتقنه ، ويكسب الكثير بجده وجهده ، وما كان يكسب ليكنز أو يطغى ، بل كان يكسب وينفق ، ويتوسع فى الإنفاق والبذل والتبرع ، وحسبنا أن نعلم أنه قد تبرع بسبعمائة ألف درهم فى غزوة أحد وحدها .

ولذلك استحق أن يسميه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه : « طلحة الخير » و « طلحة الجود » و « طلحة الفياض » ، تقديراً لكثرة ما قدم ، ولضخامة ما أعطى ، وعظم ما أنفق في سبيل الله : [إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون] . وكذلك كان يسمى : « طلحة الطلحات » .

ولقد قال قبيصة بن جابر : « صحبت طلحة بن عبيد الله ؛ فما رأيت رجلا أعطى لجزيل مال منه من غير سؤال » .

ومع الجهاد ، والاحتساب ، والاكتساب ، والإنفاق ، كان طلحة حريصاً على طلب العلم والتفقه فى الدين ، ولذلك روى الكثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، سمعها ووعاها ، وحفظها وأداها . وقد أثبت البخارى ومسلم وغيرهما هذه الأحاديث .

وظل طلحة ثابتاً على إيمانه ويقينه ، وجهاده وإحسانه ،

حتى مات شهيداً فى « معركة الجمل » سنة ست وثلاثين للهجرة ، ودفن فى مدينة البصرة ، رضوان الله عليه .

ولما رأى الإمام على رضى الله عنه جثة طلحة بكى حتى اخضلت لحيته بدموعه ، ثم قال يخاطبه :

إنى أرجو أن أكون أنا وأنت ممن قال الله فيهم :

[ونَزَعْنا ما فى صدورِهم من غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين] .

* * *

هكذا رسم لنا أسلافنا المنهاج على طريق الحق والنضال ، فلم تكن بطولتهم قوة فى الأبدان ، أو براعة فى الطعان ، فحسب ، بل كانت بطولتهم قائمة على الإيمان واليقين ، وعلى الكفاح والنضال ، وعلى أداء سائر الواجبات والأعمال ، وعلى العلم النافع ، والخلق النبيل . . .

وسيرة طلحة إنما هى نفحة من نفحات تاريخنا العظيم ، الملىء بمواطن القدوة ، ومواقف الأسوة ، فما أجدرنا بأن نستلهم من ماضينا لحاضرنا ، وأن نمضى على طريق سلفنا ، فنؤمن كما آمنوا ، ونصدق كما صدقوا ، ونجاهد كما جاهدوا ، لنفوز كما فازوا :

[إنَّ فى ذلك لذِكْرَى لمَنْ كان له قلبٌ ، أو ألْقَى السمعَ وهو شهيد] .

حامل القرآن المجاهد

سالم مولى أبى حذيفة

حينما ينفلت قلب الإنسان من حاضره إلى ماضيه ، ويستعرض الصفحات الناضرة العامرة بدروس العزة والكرامة والإباء للضيم ، يشاهد ضوءاً يخطف الأبصار ، ويستلفت الأفكار ، ويجد صفحة جهاد كريم تشعرنا بأن حياة الأخيار تنهض على التضحية والبذل والفداء :

إنها صفحة الصحابى الجليل ، المجاهد المحتسب الشهيد سالم مولى أبى حذيفة ، رضى الله عنهما ، وأرضاهما فى جنات النعيم . وسالم هو : أبو عبد الله سالم بن عبيد بن ربيعة ، ولكن السيرة الإسلامية عرفته باسم « سالم مولى أبى حذيفة » ، لأنه كان عبداً مملوكاً لزوجة أبى حذيفة هاشم بن عتبة ، واسمها « بثينة » ، فأعتقته ، وتبناه أبو حذيفة على عادة القوم فى الجاهلية ، قبل أن يحرم الإسلام التبنى ويقضى عليه .

ولما أشرق الإسلام بنوره استضاء به أبو حذيفة وسالم معاً ، فصارا مسلمين مؤمنين محسنين ، تجمعهما الأخوة فى الله ، والعمل لوجه الله ، والجهاد فى سبيل الله ، وتساوى الحر المالك والعبد المعتوق ، فقد ألغى الإسلام الامتيازات والفروق ، وقال

القرآن الكريم : [إنَّما المؤمنون إخْوَة] ؛ ولم يبق إلا التنافس فى الخير ، والتسابق فى ميادين التقوى والعمل الصالح : [إن أكرَمَكم عند اللهِ أتْقاكم] .

وزاد أبو حذيفة تكريماً لسالم فزوجه بنت أخيه : « فاطمة بنت الوليد بن عتبة » ، وكانت من القانتات العابدات الصالحات المهاجرات فى سبيل الله عز وجل .

ولقد هاجر سالم مولى أبى حذيفة قبل أن يهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، فاتخذه المهاجرون الأولون إماماً لهم ، يؤمهم فى صلواتهم ، ومنهم مثل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكانت صلاتهم أولا فى مسجد قباء الذى قال فيه القرآن المجيد : [لمسجدٌ أُسِّسَ على التقوى من أولِ يوْم أحقٌّ أن تقومَ فيه ، فيه رجالٌ يحبُّونَ أن يتطهروا ، والله يحبُّ المطهرين] . فاعجب لعبد مملوك بالأمس قد رد عليه الإسلام كرامته وعزته ، وجعله يسبق سواه من الأحرار الكبار الأصلاء ، فيصير لهم إماماً ، لأن الله تعالى قد أعز بالإسلام قوماً ، وخفض به آخرين ، والله يختص بفضله من يشاء من عباده ؛ وإنما صار سالم إماماً لهم لأنه كان أكثرهم حفظاً للقرآن ، وأتقنهم تلاوة لآياته .

ولقد زكى رسول الله عليه الصلاة والسلام مكانة سالم فى حفظه القرآن ، فجعله أحد أربعة ترجع إليهم الأمة يومئذ فى

تلقى القرآن الكريم ، فقال : « خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبى حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبىّ بن كعب » . كما يروى أن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت للنبى : يا رسول الله ، سمعت قراءة رجل فى المسجد ما سمعت مثله قط ، فقام الرسول واستمع ،وعرف صاحب الصوت ، وقال لها : أما تدرين من هو ؟. قالت : لا . قال لها : هو سالم مولى أبى حذيفة . ثم قال : الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا .

وتلك شهادة نبوية محمدية ،ترفع من قيلت فيه إلى مقام علىّ كريم .

وكان كثير من الصحابة إذا ذكروا سالماً وصفوه بقولهم : « سالم من الصالحين » ، وذلك لاجتهاده فى الطاعة ، وإقباله على القرآن ، واستقامته فى السلوك والمعاملة .

ولكن هذا العابد الصالح ، القارئ القانت ، المتقرب إلى ربه بالذكر والشكر ، والصلاة والمناجاة ، العامر لليله بالتعبد والتهجد ، كان يصير فى نهاره ، وفى مواطن الشدة والبأس التى تتطلبها الحرية والكرامة ، ليثاً هصوراً وبطلا مقداماً . ولعل هذا التعبد الموقن هو الذى كان يفجر فى صدر سالم حوافز هذا الإقدام على الجهاد والنضال ، إذ يعلـّمه أن ما عند الله تعالى خير وأبقى ، وأن لقاء الله فى موطن الكفاح الواجب والاستشهاد اللازم هو أفضل ألقاء .

ولذلك أخذ سالم يؤدى فريضة الجهاد فى سبيل ربه : سبيل الحق والعدل ، كلما تحرك داع إليها ، أو حرّض حق عليها ، فجاهد فى غزوة بدر ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق ، وسائر المشاهد الأخرى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظل تقيًّا وفيًّا ، عابداً مجاهداً ، يرهف نفسه وحسه بعبادة ربه ، ثم يشد عزمه ، وينصر قومه حين ينادى الحق أهله لنصرته وتأييده ، ولا غرو ، فهو من قوم يحبهم الله ويحبونه : [أَذلَّة على المؤمنينِ أَعزَّةٍ على الكافرين ، يُجاهدون فى سبيلِ الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضلُ اللهِ يُؤْتيه من يشاءُ ، واللهُ واسعٌ عليم] .

* * *

ومضت الأيام والأعوام ، ولحق الرسول بربه بعد أن بلّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجمع الناس على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك . وتحركت بعد وفاة الرسول عقارب الفتنة وثعالب المكر ، فإذا « مسيلمة الكذاب » يتحرك بفجوره وشروره ، وهو الذى كتب إلى الرسول من قبل يقول له : « لى نصف الأرض ، ولك نصفها » ، فرد الرسول على الدعى الدنى يقول له : « إن الأرض لله ، يورثها من يشاءُ من عباده ، والعاقبة للمتقين » . وظل مسيلمة مذءوما مدحوراً

حتى توفى الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فتحركت العقرب من مكانها .

وبدأت حرب التطهير للأرض الطيبة من أفاعيها والباغين فيها ، وجاءت « معركة اليمامة » موقفاً مشهوداً من مواقف النضال بين الإيمان والكفران ، وخرج إليها سالم مولى أبى حذيفة مجاهداً مضحياً كعادته بماله ونفسه فى سبيل عقيدته وكرامته ، شارياً ما عند الله عز وجل بكل ما يملك ، مفضلا الباقية على الفانية ، مقبلا على الموت فى موطن الشهادة كأنه يسعى إلى أمنية محبوبة ، لا يبالى أوقع على الموت ، أم وقع الموت عليه .

وكان سالم يرفع صوته ، وهو يجاهد فى حومة الوغى ، ويهتف بمن حوله قائلا : « يا أهل القرآن ، زينوا القرآن بأعمالكم » . ولعله كان يريد بهذا القول أن الذين آمنوا بالقرآن وتلوه ، ووعوا ما فيه من آيات عن الجهاد ، ووعد إلهى كريم صادق للمجاهدين المؤمنين الصادقين ، يجب عليهم أن يبرهنوا على إيمانهم بأعمالهم ، وألا يخالفوا بين أقوالهم وأفعالهم ، فربهم هو الذى يقول : [يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون ؟ كَبُرَ مَقْتًا عندَ اللهِ أن تقولوا مالا تفعلون ، إن اللهَ يُحبُّ الذين يقاتلون فى سبيلِه صفًّا كأنهم بنيانٌ مرصوص] .

وكان اللواء بيد سالم فى معركة اليمامة ، وكأنما أشفق عليه

أحد المجاهدين حينما رآه وقد ناله الإجهاد من الجهاد ، فقال لسالم : لو أعطيت اللواء لغيرك ، فإنا نخشى عليه معك .
فغضب سالم وقال : بئس حامل القرآن أنا إذن .

وكأنه يعجب أن يكون حافظاً للقرآن ، مؤمناً به ، وفيه ما فيه من الحث على الجهاد والاستشهاد ، ودعوة إلى التضحية والفداء ، ثم يضعف أو ينحرف .

ومضى سالم فى جهاده ، وقاتل حتى قطعت يمناه ، فتناول اللواء بيسراه ، وقاتل حتى قطعت يسراه ، فاعتنق اللواء بين ذراعيه ، ومضى يجاهد ، وهو يردد قول الله جل جلاله :

[وما محمدٌ إلا رسولٌ قَدْ خَلَت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلبْ على عقبيه فلن يضرَّ اللهَ شيئاً ، وسيجزى اللهُ الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموتَ إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا ، ومن يُرِدْ ثوابَ الدنيا نُؤْتِه منها ، ومن يُرِدْ ثوابَ الآخرة نُؤْتِه منها ، وسنجزى الشاكرين ، وكأيٍّ من نبيٍّ قاتَلَ معه رِبِّيُّون كثيرٌ ، فما وَهَنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضَعُفوا وما استكانوا ، واللهُ يحب الصابرين ، وما كانَ قولهم إلا أن قالوا : ربَّنا اغفرلنا ذنوبَنا ، وإسرافَنا فى

أمرنا ، وثبتْ أقدامَنا ،وانْصرنا على القومِ الكافرين ، فآتاهم اللهُ ثوابَ الدنيا وحسنَ ثوابِ الآخرة ، واللهُ يحب المحسنين] .

ثم سقط سالم شهيداً يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فتذكر أبا حذيفة صاحب الفضل عليه ، وأخاه فى الدين ، وكان أبو حذيفة يجاهد فى المعركة نفسها ، فقال سالم لمن حوله : ما فعل أبو حذيفة ؟ فقيل له : قد قتل . قال : وما فعل فلان (لأخ آخر له فى الله) . فقيل : قد قتل ، قال سالم : فأضجعونى بينهما (أى ادفنونى وسطهما) .

ومضى سالم إلى لقاء ربه ، ليأخذ طريقه من وراء هذا اللقاء إلى جنات النعيم ، ولكن لم يذهب دمه هدراً ، فإن يكن هو وأمثاله قد مضوا شهداء ،فقد لقى مسيلمة الكذاب وأتباعه مصارعهم التى مضوا من ورائها إلى عذاب الجحيم وبئس المصير : [أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم ؟ كيف تحكمون] ؟

ولقد أرسلوا ميراث سالم إلى معتقته « بثينة » لتأخذه بحكم « ولاء العتق » ، ولكنها رفضت أن تأخذه ، فحولوه إلى بيت مال المسلمين .

* * *

وليس معنى ما سبق أن سالما كان من هواة الحرب ،

أو مصاصي الدماء ، بل كان يجاهد حين يجب الجهاد ، رداً لعدوان ، أو مقاومة لبهتان ؛ ولقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى سرية إلى « بنى جذيمة » داعياً إلى الإسلام ، ولكنه حينما بلغ ديارهم وجد بأيديهم السلاح ، فظن فيهم ظن السوء ، فاعتقلهم وقتل منهم عدداً ، وكان هذا اجتهاداً مخطئاً من خالد رضى الله عنه ؛ فعارضه سالم مولى أبى حذيفة فى شدة وصرامة ، وكان معه .

ولما علم الرسول بما حدث غضب وقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد . وبعث النبي علياً فدفع ديات القتلى إلى أهليهم .

ولقد قال الرسول حينما علم بما حدث من خالد : هل أنكر عليه أحد ؟ قيل : نعم ، راجعه سالم مولى أبى حذيفة وعارضه .

من أجل هذا كان عمر بن الخطاب يثنى على سالم كثيراً ، وقال فى آخر حياته : لو كان سالم حياً ما جعلت أمر الخلافة شورى ؛ أى لوليته ، أو لاستشرته فيمن يختار للخلافة ، وأعمل بمشورته .

وروى أن عمر قال عنه : لو كان سالم حياً لوليته الأمر من بعدى !

رضوان الله تعالى على حامل القرآن المجاهد الشهيد : سالم مولى أبى حذيفة .

المجاهد بسيفه وقلبه

بشير بن سعد الأنصارى

حينما ندخل مدرسة النبوة المحمدية — على صاحبها أفضل الصلاة والسلام — نجدها قد تخرج فيها رجال وأبطال ، زانوا الحياة بفضائل الأعمال ، وحققوا العزة بموصول النضال ، وخلفوا وراءهم ذكراً حميداً ، وتاريخاً مجيداً ، يتلألآن على طريق الحرية والكرامة .

ونتطلع إلى هؤلاء فيما نتطلع ، فنرى بينهم الصحابى الجليل ، الفاضل الصالح — كما عبرت السيرة — المجاهد الصابر فى الشدائد والأزمات ، الساعى فى المحامد والخيرات : وهو أبو النعمان بشير بن سعد الأنصارى ، رضوان الله عليه . وقد كان من كبار الأنصار الذين آووا ونصروا ، وضحوا وآثروا ، وبذلوا وافتدوا ، وهو أول من أسلم من الأنصار [1] ، فدل بذلك على سلامة فطرته ونقاء طبيعته .

وقد شهد « بيعة العقبة » التى ضمت الطلائع المتقدمة لتمهيد الطريق أمام دعوة الحق والصدق ، وحينما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حرص بشير بن سعد على أن يكون

---

(١) ذكر ذلك السخاوى فى كتابه «التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة».

أقرب ما يستطيع من نور النبوة الساطع ، ليهتدى به ، وكان يتلقى من جهته كل أمر بالاستجابة والمسارعة إلى التطبيق ، فهو يؤمن بأنه جندى صفته الأساسية هى الطاعة للقيادة الراشدة ، والزعامة الرائدة ؛ مع الإخلاص فى أداء الواجب مهما كلفه من جهد أو تضحية .

ولذلك جاهد بشير بن سعد خير الجهاد فى غزوة بدر ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق ، وشهد سائر المشاهد مع رسول الله عليه الصلاة والسلام . وفى شوال من السنة السابعة للهجرة ، تآمرت قبيلة غطفان مع عيينة بن حصن الفزارى ، وكونوا جيشاً لمهاجمة النبي والمسلمين ، وأراد الرسول حينما تيقن من ذلك أن يبادر فيشتت شمل هؤلاء ، قبل أن يستفحل خطرهم بهجومهم الدنىء ، فعقد لواءً لبشير بن سعد ، وبعثه على رأس سرية فدائية قوامها ثلاثمائة مجاهد .

ومضى الرجال الأبطال إلى غايتهم ، يحملون أرواحهم على أكفهم ، وكانوا يسيرون ليلا ويكمنون نهاراً ، لتتم منهم المباغتة لعدوهم ، حتى بلغوا منطقة « يمن » و « جبار » ، وفى « معجم البلدان » أن « يَمن » بفتح فسكون ، أو بضم فسكون — هو ماء لغطفان بين بطن قوّ ورُؤاف على الطريق بين تيماء وفيد ، و « جُبار » — بضم الجيم — هو ماء لبنى حميس بن عامر بن ثعلبة ، بين المدينة وفيد ، وفيد منزل فى وسط الطريق من مكة إلى الكوفة .

وهناك ضرب المجاهدون ضربتهم الخاطفة الموفقة ، وحدث اشتباك عنيف بينهم وبين الخونة المتآمرين ؛ وبصدق فى الجهاد من بشير بن سعد ، وبراعة فى القيادة ، وخبرة بفن القتال ، وثبات فى موطن النضال ، وحسن معاونة من زملائه المناضلين ، استطاع أن يشتت شمل هؤلاء الأعداء ، وأن يستولى على قدر كبير من الغنائم ، وعاد مع رفاقه الأبطال . يسعى نور جهادهم بين أيديهم وبأيمانهم .

[أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُولئك هُمُ المتقون] .

وفى السنة التاسعة من الهجرة عاد الرسول صلى الله عليه وسلم فبعث بشير بن سعد فى سرية أخرى إلى بنى مرة المتمردين فى « فدَك » وهى بلدة بينها وبين المدينة مسيرة يومين أو ثلاثة ، وأرسل معه ثلاثين مجاهداً ، وهناك خاض بشير ومن معه معركة استمرت طوال الليل مع أعدائهم ، وتراموا فيها بالنبال ، وأصيب أكثر المجاهدين مع بشير ، ولكنه ظل يرمى ويرمى حتى نفدت ذخيرته كلها ، وهو يقاتل قتالا شديداً ، وهو صابر صبراً عظيماً — كما عبرت السيرة — وتكاثرت عليه الضربات ، وتعددت فى جسمه الجراح ، وجاءته إصابة شديدة فى كعبه لم يتمالك معها كيانه ، فسقط على الأرض مغشياً عليه دون حركة ، حتى قيل إنه مات . . .

ولكن المجاهد المؤمن استجمع ما بقى من قوته ، ونهض

ليفتح للنصر باباً ، أو يجود بنفسه فى أكرم ميدان ، وشاء الله جل جلاله أن تصله نجدة فى ذلك الوقت ، بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبها تغير الموقف ، وتحول إلى صالح المسلمين ، وعاد بشير ومن معه وفى أيديهم شهادات صدقهم فى الجهاد ، وإخلاصهم فى النضال :

[وما كان الله ليُضيعَ إيمانَكم ، إن الله بالناس لرءوفٌ رحيم]

وهكذا إذا انتهت قدرة الأرض أقبلت قدرة السماء ، وإذا استنفدت طاقة المخلوق تفتحت أبواب معونة الخالق ، وإذا اتقطعت أسباب الإنسان تواصلت أسباب خالق الإنسان :

[وربك يَخْلُق ما يشاءُ ويختار] .

* * *

ومضت الأيام ومضى معها المجاهد المخلص : بشير بن سعد الأنصارى ، يعمرها بالطيبات والقربات : عملا وسلوكاً ، وعبادة ومجاهدة ، واختاره الرسول والياً على المدينة حينما خرج الرسول إلى « عمرة القضاء » ؛ ثم لحق الرسول بربه ، بعد أن بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ؛ وبعد قليل رأينا بشير بن سعد يخرج جندياً مطيعاً متواضعاً ، يمشى ضمن الجيش الذى يقوده الفتى الشاب : « أسامة بن زيد » .

ولم لا يفعل بشير ذلك وها هو ذا يرى أبا بكر الصديق خليفة رسول الله يمشى على قدميه إلى جوار أسامة الذى امتطى

صهوة جواده . وحينما قال أسامة القائد لأبى بكر الخليفة : يا خليفة رسول الله ، إما أن تركب ، وإما أن أنزل . أجابه الخليفة الراشد قائلا فى تصميم : والله لا أركب . ولا تنزل ، وما علىّ أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ؟ !

ومضى الجيش إلى غايته . وحقق المراد من مسيرته ، بفضل الله وحده ، وبجهود أولئك الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة :

[إن اللهَ اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيَقْتلون ويُقتَلون ، وعدًا عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوْفى بعهده من الله ،فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوزُ العظيم التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ، وبشِّر المؤمنين] .

وما أربحها من صفقة عند المؤمنين العقلاء !

وظل بشير على هذا الإخلاص فى الجهاد ، والوفاء بحق الله وحق الإسلام ، حتّى نال نعمة الشهادة فى معركة « عين التمر » الواقعة غربى الكوفة . والتى فتحها المسلمون فى السنّة الثانية عشرة بقيادة السيف الإلهى المسلول : خالد بن الوليد ،

بعد « معركة اليمامة » .

ولم يكن بشير بن سعد مجاهداً فى سبيل الله بالسيف وحده ، بل كان مجاهداً كذلك بعقله وقلبه ، وحسن رأيه ، وحرصه على وحدة الكلمة وسلامة الأمة ، فحينما ثار الجدال بين المسلمين فى « سقيفة بنى ساعدة » لاختيار خليفة عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقال بعض الأنصار للمهاجرين : « منا أمير ، ومنكم أمير » ، سارع بشير — وهو أنصارى — فوقف يخطب فقال فيما قال — كما روى الطبرى وابن الأثير — :

« يا معشر الأنصار ، إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين ، وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغى لنا أن نستطيل بذلك على الناس ، ولا نبتغى به من الدنيا غرضاً ، فإن الله ولى المنة علينا بذلك ؛ ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وايم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ، ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » .

وسارع بشير فمد يده ، فكان أول من بايع أبا بكر من الأنصار ، وبذلك شارك بشير فى تجنيب المسلمين يومئذ فتنة شعواء ، لا يعلم إلا الله مداها الخطير لو لم تجد أمثال بشير الذين يسحقون الأهواء الذاتية والمطامع الشخصية والنزعات الفردية أو الإقليمية ، بنزعة الروح الجماعية ، والجندية المخلصة المجهولة فى سبيل الله عز وجل .

ولا يصح لمتوهم أن يتوهم أن هذا الموقف من بشير بن سعد يوحى بمعنى من معانى الاستسلام للقوة ، أو المتابعة العمياء ، فقد كان بشير لا يهاب فى الحق لومة لائم ، ولا يخشى فى دنياه أحداً إلا الله ، وقد يدل على ذلك أقوى دلالة ما رواه التاريخ من أن عمر بن الخطاب قال يوماً وهو خليفة — ومن حوله المهاجرون والأنصار — :أرأيتم لو أترخص فى بعض الأمر . ماذا كنتم فاعلين ؟ فقال له بشير بن سعد : لو فعلت ذلك قومناك تقويم القِدْح . (أى تقويم السهم) . فقال عمر : أنتم إذن أنتم !

* * *

ومع هذا النضال الموصول الذى خدم به بشير عقيدته وأمته ، كان يحرص على التفقه فى الدين ، وكان يسائل الرسول من حين إلى حين ليزداد علماً ، ويروى أنه لما نزل قول الله تعالى:

[إنَّ اللهَ وملائكتَه يُصَلُّون على النبي يا أيُّها الذين آمنوا صَلُّوا عليهِ وسلِّموا تسليما] قال بشير للنبي : يا رسول الله ، لقد أمرنا الله أن نصلى عليك ، فكيف نصلى عليك ؟ .

فأجابه : « قولوا : اللهم صلّ على محمد ، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم ، وعلى آل

إبراهيم ، فى العالمين إنك حميد مجيد »[1] .

وهكذا كان بشير بن سعد من قوم جمعوا بين الإيمان والعمل ، وبين العدل والقوة ، وبين الجهاد وحب السلام ، وبين العزة والرحمة ، فإذا كان يوم الحرب رأيتهم السباقين إلى مواطن الشهادة ، وإذا كان يوم السلام رأيتهم المستغرقين فى العمل والعبادة ، أولئك لهم الحسنى وزيادة .

---

(١) مما نذكره من سيرة بشير أيضاً أنه كان يكتب العربية فى الجاهلية ، وكانت الكتابة يومئذ قليلة نادرة .

الباحث عن الشهادة

أبو أيوب الأنصارى

على الطريق نمضى لنعرف المزيد من أسلافنا الرجال الأبطال ، الذين علموا الدنيا كيف يكون الجهاد والنضال .

وهذا واحد منهم ، يبدو لنا عملاقاً فى تاريخه وكفاحه ، وهو الصحابى الجليل ، الشهير النجيب[1] ، صاحب البيعتين : أبو أيوب الأنصارى ، واسمه خالد بن زيد بن كليب الخزرجى النجارى رضوان الله عليه .

وهو الذى نال الحظ الأوفى ، والشرف الأسمى ، حينما اختار بيته الرسول صلى الله عليه وسلم لينزل فيه ضيفاً ، عندما هاجر من مكة إلى المدينة ، وأقام فيه سبعة أشهر[2] حتى بنيت حجرات النبى ، وتم بناء المسجد ، وكان أهل المدينة قد اصطفوا أمام بيوتهم فى فرح غامر يستقبلون النبى صلى الله عليه وسلم وهو قادم فوق ناقته ، وهم يقولون له : يا رسول الله ، ادخل المدينة راشداً مهدياً . وكل منهم يتمنى أن يفوز بشرف ضيافته ، وكلما مر على بيت قال له أهلوه : ها هنا يا رسول الله ، هاهنا يا رسول الله .

---

(١) هذه أوصاف ذكرتها له السيرة .

(٢) وقيل إنه مكث عنده شهراً ، ولكن الأول أظهر .

ويرد الرسول عليهم بلطف قائلا وهو يشير إلى الناقة : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة .

ووصلت الناقة بيوت أخواله بنى مالك بن النجار ، فتعلقوا بخطامها قائلين : يا رسول الله ، هلم إلى أخوالك . أقم عندنا فلدينا العدد والعدة والمنعة . ولكنه عاد فقال فى دعة وهدوء : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة .

ومشت الناقة حتى بلغت بيت أبى أيوب الأنصارى فبركت أمامه ، وهناك كانت إرادة الله وعنايته ، وهناك كان اختيار الله وأمره ؛ ووقعت أكرم ضيافة عرفها التاريخ فى نصيب الرجل الطيب المبارك أبى أيوب الأنصارى ، والله يختص بفضله من يشاء من عباده .

وحينما نزل الرسول بيت أبى أيوب كان فى البيت طابقان : أرضى وعلوى ، فاختار الرسول أن ينزل فى الطابق الأرضى من البيت ، ولكن أبا أيوب قال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، إنى أكره أن تكون تحتى ، وأكون فوقك ؛ ورجاه أن يصعد إلى الطابق الأعلى ، وأن ينزل أبو أيوب وزوجته إلى الطابق الأسفل ، فقال له الرسول : يا أبا أيوب إنه أرفق بنا وبمن يغشانا (أى يزورنا) أن أكون فى سُفْل البيت .

فأطاع أبو أيوب ، ولكنه كان يجد فى نفسه غضاضة إذ يطأ سقفاً من تحته الرسول ، وكان إذا أراد هو وزوجته أن يناما انتحيا جانباً من الغرفة إلى جوار جدارها وناما ، حتى

لايجعلا نفسهما فى وسط السقف الذى يظل الرسول ، ولم يكن عليهما فى هذا العمل رقيب ولا شهيد ، وإنما هو الأدب النبيل ، والإجلال الصادق منهما لرسول الله عليه الصلاة والسلام .

ثم حدث أن سال ماء من إناء فى حجرة أبى أيوب العلوية ، فسارع هو وزوجته يجففانه بقطيفة لهما ، خشية أن يتسرب شيء منه إلى حجرة النبى ، ثم عاد أبو أيوب فألح على النبى أن يصعد إلى أعلى ، فاستجاب له مقدراً هذا الشعور الرقيق العميق من أبى أيوب .

وإنما يختار الله بعلم ، ويختص لحكمة ، فأبو أيوب الأنصارى كان من السباقين إلى الخير ، وهو ممن بايع الرسول على الجهاد والاستشهاد مرتين ، فقد كان من طلائع الأنصار السبعين الذين بايعوا « بيعة العقبة » ، فصار ممن قال الله تعالى فيهم : [والسابقون السابقون ، أُولئك المقرَّبون] .

ثم كان من طلائع المجاهدين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم « بيعة الرضوان » فى غزوة الحديبية ، فصار من الذين قال الله تعالى فيهم : [إن الذين يُبايعونَك إنما يبايعون الله ، يدُ الله فوقَ أَيديهم ، فمن نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسِه ، ومن أَوْفَى بما عاهَدَ عليهُ اللهَ فسيؤْتيه أَجراً عظيما] . وقال فيهم أيضاً : [لقد رضِىَ اللهُ عن المؤمنين

إذ يبايعونك تحتَ الشجرة فعَلمَ ما فى قلوبهم فأنزلَ السكينةَ عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانمَ كثيرةً يأخذونها وكان اللهُ عزيزًا حكيما] .

وآخى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بين أبى أيوب الأنصارى ومصعب بن عمير ، ومصعب هو أول مبعوث فى الإسلام ، وأول سفير للرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد أرسله قبل الهجرة إلى المدينة ليعلم المسلمين فيها القرآن ومبادئ الإيمان .

وبدأت سلسلة المعارك والغزوات بين عباد الرحمن وجنود الشيطان ، وكان أبو أيوب فيها سباقاً إلى مواطن الهول ، باحثاً عن الشهادة ، يتطلبها ويسعى إليها ، وتألقت خطواته وضرباته فى غزوات : بدر ، وأحد ، والخندق ، وجميع المشاهد الأخرى ، وكان له شعار يردده ويؤكده ، ويطبقه ويؤيده .

وهذا الشعار هو قول ربه عز من قائل : [انْفِرُوا خِفَافاً وثِقالا ، وجاهِدوا بأموالكُم وأنفسكُم فى سبيل الله ، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون] .

وكان فى كل مرة يتلو فيها هذه الآية — وما أكثر تلاوته لها — يقول عن نفسه : « لا أجدنى إلا خفيفاً أو ثقيلا » أى لا بد لى من الجهاد على أى حال ، لأن معنى قوله تعالى :

[انفروا خفافاً وثقالا] هو كما ذكر المفسرون : اخرجوا إلى الجهاد عند وجوبه : شباباً كنتم أم شيوخاً ، كثرة كنتم أم قلة ، ركباناً كنتم أم مشاة ، موسرين كنتم أم معسرين .

وأنعم بذلك الاستنفار من نداء إلهى كريم تتفتح بالاستجابة الصادقة له أبواب الحرية والعزة والكرامة ؛ ولذلك قال صفوان ابن عمر : « استنفرنا الله خفافاً وثقالا ، ومن يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده ويبقيه ، وإنما يبتلى الله من عباده من صبر وشكر وذكر ، ولم يعبد إلا الله عز وجل » .

وظل أبو أيوب الأنصارى يواصل الجهاد ، ويواجه الخطر ، ويبحث عن الشهادة ، ويحرص على الموت فتوهب له الحياة ، ووقف مناضلا مقاتلا إلى جانب الإمام علىّ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، وشهد معه « موقعة الجمل » و « موقعة صفين » و « موقعة يوم النهروان »[1] ، وثبت على وفائه للإمام على حتى لحق الإمام بربه ، وبقى أبو أيوب يتطلب أى ميدان يندفع إليه ليقاوم فيه البغى والطغيان ، أو ينشر فيه كلمة الحق والإيمان ، وكأن الله جل جلاله لم يخلقه إلا ليكون حليف سلاحه وقرين جهاده ، ليظل مدافعاً عن الحرمات والمقدسات ، ونصيراً للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا .

---

(١) النهروان : كورة واسعة بين بغداد وواسط ، من الجانب الشرقى ، حدها الأعلى متصل ببغداد .

وحينما علم بخروج الجيش الإسلامى المحرِّر إلى بلاد الروم ليخوض معركة القسطنطينية – وهى إصطمبول [1] الآن – سارع بالانضمام إليه ، وغزا فيه ما غزا ، لا يريد علوًّا فى الأرض ولا فساداً ، ولا يبتغى جاهاً ولا متاعاً ، وإنما هو يبتغى ما عند الله والدار الآخرة ، ولذلك يجاهد من أجل الحق والعدل والإيمان .

وأصيب أبو أيوب فى المعركة ، وجاءه القائد يعوده وقال له : ما حاجتك يا أبا أيوب ؟ فلم يذكر أبو أيوب متعة من متع الدنيا ، ولا منفعة من منافع الحياة ، ولا عرَضاً من أعراض الناس ، بل قال له : إذا أنا مت فاركب بى ، ثم سغ بى فى أرض العدو ما وجدت مساغاً ، حتى إذا لم تجد مساغاً فادفنى وارجع (أى احمل جثتى ، وادخل بها فى أرض العدو إلى أبعد ما تستطيع ، وادفنى هناك) .

ثم قال له : أقرئ الناس منى السلام ، ولينطلقوا بى فى أرض العدو ، وليبعدوا ما استطاعوا ، وهناك فادفنونى .

وكأنه أراد بوصيته هذه أن يعلق أبصار رفاقه وهممهم ببلوغ الغاية الكبرى ، وتحقيق النصر الواسع ، فأراد أن يتوغل قومه بجثمانه إلى أبعد مكان ممكن من الأرض التى ينزل فيها العدو ، ويدفنوه فيه ، تطلعاً منه إلى يوم النصر ، ورغبة عنده فى أن يكون جثمانه طليعة للمجاهدين المظفرين من ورائه ، وكأنه

---

(١) هكذا رسمها ياقوت فى معجم البلدان .

يريد أن يقول لربه يوم لقائه : يا إلهى ، هأنذا قد جاهدت فى سبيلك بحياتى ، وجاهدت فى سبيلك بجثتى بعد مماتى .

وأسلم أبو أيوب إلى بارئه آخر أنفاسه ، ودُفن إلى جوار سور القسطنطينية سنة اثنتين وخمسين للهجرة[1] ، وحاول بعض الناس إخفاء قبره ، ولكن عارفى فضله وجهاده عرفوه وأظهروه ، وتلمسوا البركة من حوله ، وكأنهم حينما يقفون أمام قبره ، ويسترجعون تاريخه العاطر الباهر ، يخيل إليهم كأن المكان من حوله تحف به نسمات طاهرة مباركة ، وكأن الهواء هناك يرق ويشف ، وكأن الأرض تشرئب بأعناقها لتشرف بلقاء السماء ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

ولا عجب فقد نشأ مجاهداً ، وعاش مجاهداً ، ولقى ربه مجاهداً ، والجهاد فى سبيل الله — عند وجوبه — أفضل الأعمال ، حتى قال الرسول : « إن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ اغزوا فى سبيل الله ، من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة (أى مقدار حلبها) وجبت له الجنة » .

ولقد سئل النبى : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « إيمان لا شك فيه ، وجهاد لا غلول فيه ، وحجة مبرورة » . وأبو أيوب كان يفهم أن ترك الجهاد سبب الخسار والبوار ، حتى روى

---

(١) وقيل إنه توفى سنة خمسين ، وقيل سنة إحدى وخمسين ، ولكن المشهور أنه توفى سنة اثنتين وخمسين .

أبو داوود فى سننه عن أسلم أبى عمران قال :

غزونا من المدينة نريد القسطنطينية ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد ، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو ، فقال الناس : مه مه (أى : اكفف اكفف) . ثم قالوا متعجبين منه : لا إله إلا الله . يلقى بيديه إلى التهلكة !

فقال أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه : إنما نزلت فينا معشر الأنصار ، لما نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأظهر الإسلام ، قلنا : هلم نقيم فى أموالنا ونصلحها ، وندع الجهاد ، فأنزل الله تعالى : [وَأَنفِقُوا فى سَبِيلِ اللهِ ولا تُلقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ] فالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وندع الجهاد .

قال أسلم أبو عمران : فلم يزل أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية ! . .

ومع هذه الحياة الفدائية المناضلة كان أبو أيوب يعطى ناحية الفقه والدين حقها من العناية والرعاية ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وخمسين حديثاً . ومما أوصاه به الرسول قوله : « إذا صليت فصل صلاة مودع ، ولا تتكلم بكلام تعتذر منه ، والزم اليأس مما فى أيدى الناس » .

وهكذا حرر أسلافنا أنفسهم وبلادهم ، فلما كسبوا

العزة فى ديارهم لم يستأثروا بنعمتها ، بل خرجوا ينشرون أضواءها فى كل مكان استطاعوا بلوغه ؛ وما أوسع المسيرة التى قطعوها فى هذا المجال ، فبأى وجه يلقى الأخلافُ أسلافهم إذا سكت الأخلاف على المذلة أو رضوا بالهوان ؟ !

إنَّ فى ذلكَ لذكرى لمنْ كانَ لهُ قلْبٌ أَو أَلْقى السمعَ وهو شهيد .

الفدائى الصبور

عبد الله بن حذافة السهمى

إن العمل الفدائى البطولى من شأنه أن يمضى فى طريقه مناضلا ، ليظل همزة الوصل بين جهاد سابق وجهاد مأمول ، حتى يأتى الله بالفتح أو أمر من عنده . والفدائيون من شأنهم أن يحملوا أرواحهم على أكفهم ، وينطلقوا نحو أقدارهم ، فمنهم من يحقق غرضاً ، ويعود ليبقى مرابطاً فى انتظار جولة أو جولات ، ومنهم من يذوق الشهادة ، ويمضى بها إلى ربه هانئاً سعيداً ، ومنهم من يقع فى الأسر ، ويتعرض للتعذيب والإهانة ، وسوء المعاملة من الأعداء ، فيصبر ولا يستسلم .

وهذا مجاهد كريم من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يناضل فيصدق فى النضال ، ويذوق مرارة الأسر فلا يلين ولا يهون ، بل يثبت ويصبر ، ويضرب مثلا رائعاً فى الاحتيال وحسن الاحتيال لتحقيق الخير للإسلام والمسلمين .

إنه الصحابى الجليل عبد الله بن حذافة السهمى رضى الله عنه ، وهو أحد السابقين إلى الإسلام : [والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ المُقَرَّبُونَ ، فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، ثُلَّةٌ من الأَوَّلِين ، وقليلٌ من الآخرين] . وكان من المهاجرين إلى الحبشة وشاركه

الرحلة أخواه : قيس وخُنيْس ، وشهد غزوة بدر ، فكان من الذين قال فيهم الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال لهم : اعملوا ما شئتم ، فإنى قد غفرت لكم » .

وظل مجاهداً مناضلا فى رحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، حتى اختاره ليكون مبعوثه إلى كسرى ملك الفرس . ليدفع إليه بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ، ويقول له فيما يقول : « أدعوك بدعاية الإسلام ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة . لأنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم المجوس » يعنى أهل فارس لأنهم يعبدون النار .

ووصل عبد الله بن حذافة قصر كسرى ، وطلب مقابلته ليقدم إليه الكتاب ، فأراد بعض الحاشية أن يأخذ منه الكتاب ليسلمه — أو ليرفعه — إلى مولاه كسرى ، فأبى عبد الله ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن أسلم الكتاب بيدى إلى كسرى نفسه .

وبعد تمنّع ومراجعة أدخلوه على كسرى ، فأقبل نحوه بلا خوف ولا وجل ، وبلا تقيد بأوضاع كانوا يلتزمونها عند لقاء كسرى ، وكلها تدل على تجبر الحاكمين المتألهين فى المحكومين المستضعفين ، ومد عبد الله يده بالكتاب إلى كسرى ، وكأنه يقول له : خذ ، هذا لك ، فتسلم كسرى منه الكتاب ،

وأعطاه لمن يقرؤه ، فإذا فى أوله : « من محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى كسرى عظيم فارس »، فكبر على كسرى أن يذكر اسم الرسول قبل اسمه ، فأخذ الكتاب من يد قارئه غاضباً ، ومزقه قبل أن يعلم ما فيه .

ومع أن عبد الله بن حذافة رجل غريب وحيد ، وفى داخل عرين الأسد المتوحش الهائج ، ومن حوله الجنود والحراس ، والخدم والحشم ، لم يخف ولم يفزع ، بل لعل نور الحق أضاء فى جوانب فؤاده ، فأدرك أن نهاية هذا الطاغية قريبة ، ما دام يندفع فى تهوره ورعونته بهذه الصورة ؛ ولم يتحرك عبد الله من مكانه حتى أمر كسرى بإخراجه ليعود إلى بلاده .

ولما عاد وأخبر الرسول بما كان ، قال عليه الصلاة والسلام : « مزق الله ملكه » . وكانت دعوة أجراها القدر على لسان النبوة ، فما هى إلا أيام حتى لقى كسرى مصرعه على يد ابنه شيرويه ، كما تقول بعض مصادر التاريخ ؛ ويقال إن ابنته خلفته من بعده ، فلما بلغ ذلك النبى قال : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

* * *

ومضت الأيام والأعوام ، وابن حذافة حيث هو من موقعه فى نصرة الإسلام ، وأقبل عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، الذى مزق بكتائب الإيمان طغيان الأكاسرة ، وبغى القياصرة ؛ وقد جهز عمر أحد الجيوش إلى بلاد الشام ، ليحررها من طغيان

الروم المحتلين لها ، وكانت كلمة « الشام » حينئذ تطلق على سورية ولبنان وشرق الأردن وفلسطين ، وكان عبد الله بن حذافة من جنود هذا الجيش ، وبذل فى الجهاد ما استطاع ، ثم وقع أسيراً مع جمع من إخوته وزملائه فى النضال والكفاح والسلاح ، وكان أسرهم فى بلدة « قيسارية » من أرض فلسطين المحتلة .

وأظهر عبد الله شجاعة أذهلت جنود الروم ، فحملوه إلى ملكهم ، فعرض الملك على عبد الله وسائل التأثير المختلفة ، ليخضع أو يخنع ، فلم تُجْد معه شيئاً .

عرض عليه أولا أن يعطيه الواسع الفسيح من العقار والديار على أن يترك دينه . فقال له ابن حذافة : والله لو أعطيتنى جميع ما تملك ما رجعت عن دينى طرفة عين .

فطالبه بأن يخبره بأسرار جيش المسلمين ، فأبى واستعصم ، فهدده الملك بالقتل ، فأجاب ابن حذافة : أنعِمْ بها من شهادة . فعلقوه على هدف كالمصلوب ، ثم أمر الملك الرماة بأن يرموا سهامهم قريباً من بدنه لإخافته وإرهابه ، ولكن الطود الشامخ الثابت الوطيد الإيمان واليقين ظل شامخاً راسخاً ، لم يخف ولم يفزع ، فحلوا وثاقه ، لينقلوه إلى لون آخر من ألوان التعذيب.

وهنا بكى عبد الله بن حذافة ، فظن أعداؤه أن الضعف قد أدركه ، ولكنه أفزعهم وأرعبهم حين قال لملكهم : « لا ترى أنى بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بى ولكنى بكيت حيث ليس لى إلا نفس واحدة ، يفعل بها هذا فى الله ؛ كنت أحب

أن يكون لى من الأنفس عدد كل شعرة فىَّ ، ثم تسلَّط علىَّ ، فتفعل بى هذا » .

ثم حبسوه فى سجن انفرادى بلا طعام ولا شراب ، ولكنهم وضعوا بجانبه خمراً ولحم خنزير ، فمكث عبد الله ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ، حتى بدا الضعف عليه ، ولما سألوه : لماذا لم تأكل من لحم الخنزير ولم تشرب من الخمر ؟ أجابهم بقوله : إن الضرورة تجيز لى هنا أن آكل من لحم الخنزير ، وأن أشرب من الخمر ، لان الله تعالى يقول : [فمن اضطُرَّ فى مَخْمَصَة غيرَ مُتجانِف لإثم فإن اللهَ غفورٌ رحيم] ولكنى كرهت أن تشمتوا بالإسلام .

وازداد إعجاب الملك الداخلى بشجاعة عبد الله بن حذافة ، فرمى إليه بآخر سهم فقال له : قبِّل رأسى وأنا أطلق سراحك . ففكر عبد الله قليلا ، ثم أجاب بقوله : إن نفسى لا تعنينى ، ولكن إن أفرجت عن إخوتى الأسرى قبلت رأسك .

وفرح الملك المغرور ، فكل همه محصور فى أن يكلِّف هذا الأسيرَ المارد العملاق بأى شىء يطيعه فيه ويعمله ؛ وبعد أن أخذ عبد الله المواثيق عليه قبَّل رأسه ، فأفرج عنه الملك ، وأفرج له عن ثمانين أسيرًا من المسلمين .

وعاد ابن حذافة معهم إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، فلما رآهم عمر فرح بهم فرحاً شديداً ، وحمد الله على نجاتهم ،

وكأنهم قد وُلدوا فى نظره من جديد ، وسألهم عن أخبارهم ، فقص عليه عبد الله بن حذافة ما حدث .

وهنا قال عمر لمن معه من المسلمين : حقٌ على كل مسلم أن يقبّل رأس ابن حذافة ، وأنا أبدأ . وسارع عمر بالنهوض ، وأقبل على رأس بن حذافة يقبله تكريماً له ، وتابعه فى ذلك كل من حضر .

وشتان بين تقبيل وتقبيل ، فتقبيل ابن حذافة لرأس ملك الروم كان لوناً من الاحتيال لإطلاق سراح زملائه ، والحرب خدعة كما قال الحديث الشريف ، ولعله هم وهو يقبل رأس الطاغية أن يبصق عليه ، احتقاراً له ؛ وأما تقبيل عمر والمسلمين لرأس ابن حذافة فإنه تقبيل التكريم والتقدير والحب ، ولا عجب ، فقد شهدوا أمامهم مثلا من أمثلة البطولة الفدائية الصابرة التى خرجتها مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ، ورأوا — باعتزاز وافتخار — كيف جمع عبد الله بن حذافة بين قوة النضال ، وطول الاحتمال ، وحسن الاحتيال[1] .

* * *

وتابع عبد الله نضاله ، فاشترك فى فتح الإسلام لمصر مع القائد عمرو بن العاص ، ولما استقر عمرو فى الفسطاط أرسل عبدَ الله بن حذافة إلى « عين شمس » ففتحها ، وتمكن منها ،

(١) وفوق هذا كله كانت فيه دعابة كما تقول السيرة .

وصالح أهل قراها ، ثم جعله عمرو حاكماً على الإسكندرية بعد فتحها ، وظل فى ذلك العمل حيناً من الزمن .

وبعد حياة طويلة جليلة مجيدة ضم ثرى مصر رفات عبد الله ابن حذافة السهمى رضى الله عنه، لأن التاريخ يقول إنه مات فيها خلال خلافة عثمان بن عفان رضوان الله عنه . فليت هذا الثرى يذكر أبناءه ببطولات أجدادهم ، وصفحات أمجادهم ، وحرمة بلادهم ، وتبعات جهادهم ، حتى يسير الأبناء على الدوام فى طريق الآباء ، فنرى من الخلف وراء السلف ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم .

فدائى بطبعه

محمد بن مسلمة الأنصارى

كلما قلبنا صفحات تاريخنا الإسلامى وجدنا فيه مزيداً من صور البطولة ، ونماذج التضحية والفداء ، وهذا واحد من هذه النماذج ، تعطرسيرتـه نجدةٌ وشهامة ، وتضحية وحب للشهادة ، وهو الصحابى الجليل أبو عبد الله محمد بن مسلمة الأنصارى الذى سارع إلى الإسلام حين عرفه ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين أمين الأمة أبى عبيدة بن الجراح عقب الهجرة .

وشهد ابن مسلمة غزوة بدر والغزوات كلها ، وكان مشرفاً على حرس رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وكان لديه استعداد واضح للعمل الفدائى المقدام ، فبعث به النبى فى سرية عددها ثلاثون مجاهداً إلى الإغارة على جماعة من الأعداء من بنى كلاب ، فسار محمد مع رفاقه بالليل ، وكمنوا فى النهار ، حتى بلغوا مكان أعدائهم ، ثم اندفع محمد ومن معه كالقدر العاجل ، فقتلوا عدداً من أعدائهم ، وهرب الباقون ، واستولى محمد بن مسلمة على ما وجده من الإبل والغنم ، وعاد بكل ذلك إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ويروى أنهم أسروا فى هذه السرية ثمامة بن أثال زعيم أهل اليمامة ، فلما لقى ثمامة الرسول قال له : ما عندك يا ثمامة ؟

فقال : عندى يا محمد خير ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تُنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

فقال الرسول لأصحابه : أطلقوا سراح ثمامة .

وفعل هذا العفو المحمدى الكريم فعله ، فخرج ثمامة إلى مكان قريب فاغتسل ، ثم عاد إلى رسول الله وهو يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، يا محمد ، والله ما كان على الأرض أبغض إلىّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إلىّ ، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلى من دينك ، فقد أصبح دينك أحبّ الدين كله إلىّ .

واستقام ثمامة على الصراط ، فلم ينحرف عنه بعد ذلك حتى فارق الحياة ، عليه رضوان الله .

* * *

وفى ربيع الآخر من سنة ست للهجرة أرسل النبى صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة إلى مهاجمة أعداء آخرين ، هم بنو ثعلبة فى مكان اسمه « ذو القصة »[1] ، وكان معه عشرة من المجاهدين فحسب ، فأحاط بهم مائة من أعدائهم الكافرين ،

(١) بين ذى القصة والمدينة أربعة وعشرون ميلا ، فى طريق الربذة .

واشتد القتال بين القلة المؤمنة والكثرة الكافرة ، ونال الشهادة زملاءُ محمد جميعهم ، وأصابته جراحة بليغة لم يستطع معها الحركة ، فحسب المشركون أنه قد مات أيضاً ، فتركوه وانصرفوا .

ومر أحد المسلمين على جثث هؤلاء الشهداء ، وبينهم محمد ابن مسلمة وهو حي جريح ، فحمله إلى المدينة بعد أن وارى الشهداء التراب ؛ وفى المدينة وعلى مقربة من رسول الله خير راع للأبطال الباذلين عولج محمد بن مسلمة حتى شفى من جراحه ، وما كاد يحس العافية فى جسمه حتى سارع من جديد بالعودة إلى ميدان الجهاد والفداء .

وفى تاريخ محمد بن مسلمة يتألق موقف رائع كذلك ، هو قتله لعدو الله ورسوله والمؤمنين : اليهودى اللئيم الخسيس كعب بن الأشرف ، وكان ذلك فى ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة ، وكان كعب هذا يهودياً خبيثاً كرفاقه إخوة القردة والخنازير ، ولما سمع بانتصار المسلمين فى غزوة بدر ، وأنهم قتلوا كثيراً من المشركين ، أكل قلبه الغيظ والحقد ، وقال : لئن كان محمد أصاب هؤلاء لبطن الأرض خير من ظاهرها !

وسارع بالذهاب إلى مكة ليتآمر مع المشركين ضد المسلمين ، وهناك قال له عبدة الأصنام والأوثان : أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه ؟ وأى دينينا أهدى فى رأيك وأقرب إلى الحق ؟

فقال الأثيم الفاجر : أنتم أهدى منهم سبيلا .

وفى ذلك نزل قول الله تعالى : [أَلَمْ تَرَ إلى الذين أُوتُوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ والطاغُوتِ ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاءِ أَهْدَى من الذين آمنوا سبيلاً ، أُولئك الذين لعنَهم اللهُ ، ومَنْ يَلْعَن اللهُ فلَن تجدَ له نصيراً] .

وأخذ الفاجر الداعر كعب بن الأشرف يرثى قتلى المشركين فى بدر ، وكان شاعراً ، ويحرض على قتال النبى والمسلمين ، ويتغزل فى نساء المؤمنين ، ويطعن فى أعراضهن الطاهرة ، وجعل يسب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أفحش السباب ، ويتهكم بالإسلام وبالقرآن الكريم .

وكان لابد من جزاء رادع لذلك الفاجر ، فقال رسول الله : من لى بابن الأشرف ، فإنه يؤذى الله ورسوله والمؤمنين ؟ و يروى أن الرسول قال : « اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت » ثم قال : « من لى بابن الأشرف فإنه آذانى » .

وسارع البطل الفدائى بطبعه : محمد بن مسلمة قائلا : أنا يا رسول الله ، أنا أقتله إن شاء الله .

فقال له النبى : فافعل إن قدرت على ذلك .

وأخذ محمد بن مسلمة يفكر : لقد أعطى رسولَ الله عهداً لابدّ من الوفاء به مهما كان الثمن ، ولكن كيف السبيل إلى كعب وهو متحصن بحصنه وسلاحه ؟ ومضت ثلاثة أيام

لا يذوق فيها ابن مسلمة طعاماً ولا شراباً ، إلا ما يمسك عليه الرمق ، ولما علم الرسول بذلك قال له : لم تركت الطعام والشراب ؟

فأجاب : يا رسول الله ، لقد قلت لك قولا لا أدرى أ أفى لك به أم لا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : عليك الجهد (أى لا تكلّف إلا وسعك) .

فأخبره ابن مسلمة بأنه سيستعين ببعض زملائه ، وأنهم سيعمدون إلى الحيلة فى مهمّتهم ، ثم قال للرسول : إنه لا بد لنا أن نقول (أى نقول فيك بعض ما لا نعتقد أمام كعب حتى نستدرجه ، والحرب خدعة) .

فقال له الرسول : قولوا ما بدا لكم ، فأنتم فى حل ، ثم دعا لهم فقال : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم .

وذهب محمد بن مسلمة مع بعض رفاقه إلى زيارة كعب متظاهرين له بأن دعوة محمد قد سببت لهم امتحاناً شديداً ، وعداوة مع الناس ، وأنهم جاءوا ليأخذوا منه طعاماً ، فاشترط عليهم أن يكون ذلك برهن .

واتفق معهم على أن يكون الرهن هو سلاحهم ، فتظاهروا بالموافقة ، ثم استدرجه ابن مسلمة حتى أنزله من حصنه ، وابتعد به عن الحصن ، ثم هجم عليه ، وقتله بمعاونة من معه ، وعاد معهم إلى المدينة ، فلما رآهم الرسول قال : أفلحت الوجوه . فقالوا : ووجهك يا رسول الله !

وكان ذلك على رأس خمسة وعشرين شهراً من الهجرة .

وكان هذا العمل البطولى الفدائى سبباً فى بث الطمأنينة فى صدور كثير من المسلمين ، وفى بعث الفزع فى نفوس كثير من اليهود المجرمين ، ولذلك قال محمد بن مسلمة عقب ذلك : « ورجعنا إلى أهلنا ، فأصبحنا وقد خافت يهود ، لوقعتنا بعدو الله ، فليس بها (أى المدينة) يهودى إلا وهو يخاف على نفسه » .

ولكن ليس معنى هذا أن اليهود قد ارتدعوا عن باطلهم ، أو رجعوا عن ضلالهم ، بل زادوا فى الأرض مكراً وإفساداً ، وتبجحوا تطاولا وعناداً ، وهذا يهودى آخر اسمه « مرحب » يقتل شقيق محمد بن مسلمة ، ويفاخر بقوته وطغيانه ، حتى يرفع صوته الأثيم قائلا :

قد علمت خيبر أنى مرحبُ ... شاكى السلاح بطل مجرب
إذا السيوف أقبلت تلهب ... أطعن أحياناً ، وحيناً أضرب

وهنا قال الرسول صلى الله عليه وسلم مشيراً إلى مرحب : من لى بهذا ؟

فسارع محمد بن مسلمة يقول : يا رسول الله ، أنا له يا رسول الله ، فأنا والله الموتور الثائر ، فقد قتل أخى بالأمس .

فقال له النبى : قم إليه .

وقام إليه البطل الفدائى فصارعه وقاتله حتى قتله .

وحينما استشرى بغى هؤلاء اليهود وطغيانهـــم ، أباح

الرسول للمسلمين الفتك بكل عدو منهم ، فقال : « من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه » .

وهل جزاء العدوان إلا العدوان ؟ ولذلك يقول القرآن :

[فمن اعتدَى عليكم فاعْتَدُوا عليه بمثل ما اعتدَى عليكم ، واتَّقُوا اللهَ ، واعلموا أن اللهَ مع المتقين] .

* * *

وتوالت الأيام وراء الأيام ، ولحق الرسول بربه — عليه الصلاة والسلام — وظل محمد بن مسلمة ثابتاً على عهده ، مجاهداً مناضلا لا يهاب الموت .

ثم وقعت الفتن بين المسلمين ، وحدث بينهم ما حدث من خلاف وشقاق ، وصار بأسهم بينهم شديداً ؛ وهنا تذكر محمد بن مسلمة أن رسول الله أعطاه ذات يوم سيفاً ، وقال له : « قاتل به المشركين ما قاتلوا ، فإذا رأيت أمتى يضرب بعضهم بعضاً ، فأت به أحداً (يعنى جبل أحد) فاضرب به حتى ينكسر ، ثم اجلس فى بيتك ، حتى تأتيك يد خاطئة ، أو منية قاضية » .

فخاف ابن مسلمة من الفتنة ، فاعتزل الناس ، وأقام البقية الباقية من حياته فى قرية « الربذة » التى مات فيها أبو ذر الغفارى ، ولعله كان يتذكر حينئذ وصية الإمام على لأبى ذر التى يوصيه فيها بالرضى بالله ، والصبر على طاعته .

ومات محمد بن مسلمة فى صفر سنة ثلاث وأربعين للهجرة ، وهو ابن تسع وسبعين سنة . رضوان الله على الجميع .

الأسد فى براثنه

سعد بن أبى وقاص

الحياة عقيدة وجهاد ، أو إيمان وعمل ، أو معرفة وسلوك ، ومن أهم عوامل التوفيق الإلهي فى هذه الحياة أن ينظر الإنسان فيدرك ، ثم يعتقد ويؤمن ، ثم يخلص لإيمانه ولمبادئه ، فيلتزمها ويدعو إليها ويدافع عنها ويضحى من أجلها ، ويحقق لها صورة عملية فى قوله وفعله وتفكيره ، وسائر تصرفاته وتحركاته .

فإذا صفا منه القلب ، وطاب القول ، وصلح العمل ، واستقام السلوك ، فقد أصبح موصول الأسباب بالله جل جلاله ، يتقبل منه عمله ، ويستجيب دعاءه .

ولقد ضرب لنا أجدادنا المؤمنون أروع الأمثال فى هذا المجال ، ومنهم فارس الإسلام ، البطل الفدائى ، المجاب الدعوات ، الرشيد الخطوات : سعد بن أبى وقاص الزهرى رضى الله عنه ، فقد كان سابع سبعة بادروا إلى الإسلام فى أول البعثة النبوية ، وعمر دنياه بالإخلاص والطاعة والشجاعة والجهاد الصادق فى سبيل الله ، حتى استحق أن يكون أحد العشرة المبشرين بالجنة من رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام ، ومات وهو راضٍ عنهم ، وأحد الستة الذين رشحهم

عمر بن الخطاب ليختار المسلمون أحدهم للخلافة من بعده ، بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسى .

وكان سعد أول من رمى بسهم فى سبيل الله عز وجل ، فكان بذلك أول من أراق دماً للكفر الباغى والشرك الطاغى ، فقد روت السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه فى السنة الأولى للهجرة سرية يقودها عبيدة بن الحارث ، إلى « رابغ » ، وكان سعد فى هذه السرية ، فلما التقى أفراد السرية بأعدائهم سارع سعد فانتزع سهماً من جعبة سهامه ورمى به ، فأصاب واحداً من الأعداء ، وأدخل ذلك الفزع عليهم فتراجعوا . وحقق المسلمون ما أرادوا ، وفى ذلك يقول سعد مفاخراً :

ألا هل جا رسول الله أنى   حميت صحابتى بصدور نبلى
فما يعتد رام من معـــد   بسهم معْ رسول الله قبلى

ولقد كان سعد بارعاً براعة واضحة فى تسديد السهام ، وإصابتها أهدافها بدقة ، ويروى أنه حدث فى غزوة الخندق أن رجلا من المشركين أكثر من رمى السهام جهة المسلمين ، فتناول سعد سهماً وسدده إليه ، فأصابه فى جبهته ، فخر صريعاً ، فضحك النبي حتى بدت نواجذه من إصابة سعد المسددة .

وواصل سعد الوقوف إلى جوار رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى الغزوات والمعارك ، يحمل روحه على راحته ، ويقدمها فى كل موطن من مواطن البذل والفداء لنصرة دين الله وإعزاز كلمته .

وفى اليوم العصيب الشديد : يوم غزوة أحد ، ضرب سعد ابن أبى وقاص مثلا رائعاً فى الثبات والإقدام والإخلاص، فضل يقاوم ويدافع ويفتدى الرسول بنفسه ، والرسول يقدر له بطولته ، ويذكرها ، وينوه بها ، فيقول لسعد : « ارم فداك أبى وأمى ، ارم أيها الغلام الحَزَوَّر» أى الفتى الشديد القوى .

ويالها من مكرمة ينالها سعد عند الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، حينما يقال له من فم النبوة الطاهر هذا التعبير الباهر ، ولذلك قال الإمام على بن أبى طالب : « ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبويه (فى التفدية) لأحد غير سعد ، فإنه جعل يقول له يوم أحد : ارم فداك أبى وأمى ، ارم أيها الغلام الحَزَوَّر » ! .

ولقد كان عند سعد استعداد واضح للعمل الفدائى بجرأة وشجاعة ، ولذلك أشركه الرسول بعد الهجرة فى أكثر من عمل فدائى ، وحدث قبل غزوة بدر أن جعله النبى قائداً لسرية قوامها عشرون مجاهداً من المهاجرين ، وعقد له لواءً ، وكلفه معهم بمهمة ، فأقبل سعد ومن معه على تنفيذها كما كلفهم الرسول فى دقة واحتياط .

ومما يدل على هذا الاستعداد عند سعد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مع المسلمين فى وقت فزع وخطر ، فقال ذات ليلة : « ليت رجلا صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة » ، وما كاد الرسول يتم عبارته ، حتى سمع خشخشة سلاح ، فسأل : من

هذا ؟ فأجابه سعد وهو على مقربة منه : أنا سعد بن أبى وقاص يا رسول الله ، جئت أحرسك .

ولقد كان سعد أحد الأبطال الأوائل الذين طهروا أرض العرب من الشرك والضلال والاحتلال ، ثم حرروا الناس من جرائم الكسروية ومآثم القيصرية ، وكان قائدَ الجيش الذى هزم الفرس وأعداء العرب والمسلمين فى معركة القادسية ، وفتح العراق ، ولذلك يوصف سعد فى التاريخ بأنه « فاتح العراق » .

ولقد أسرف الفرس قديماً فى بغيهم وعدوانهم حتى فكر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب فى أن يخرج إليهم بنفسه قائداً لجيش التحرير الإسلامى ، ولكن بعض من حوله من الصحابة رأواأن تلك مخاطرة لا تحوج إليها الضرورة ، وأصروا على أن يقود الجيش قائد سواه ، فطلب منهم أن يختاروا ذلك القائد ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : « لقد وجدته يا أمير المؤمنين ، إنه الأسد فى براثنه ، إنه سعد بن أبى وقاص » !

واستراح الفاروق إلى هذا الاقتراح ، وشرع فى تنفيذه . وكان سعد حينئذ أميرًا على هوازن ، فاستدعاه الخليفة ، وأسند إليه قيادة الجيش ، وأوصاه وصية رائعة ، قال له فيها :

« يا سعد ، إنى قد وليتك حربَ العراق ، فاحفظ وصيتى ، فإنك تقدم على أمر شديد كريه ، لا يخلص منه إلا الحق ، فعوِّد نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به ، ولا يغرنك من الله

أن قيل : خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه[١] ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسبٌ إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربُّهم ، وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة .

فانظر الأمر الذى رأيتَ النبى صلى الله عليه وسلم عليه منذ بُعث إلى أن فارقنا ، فالزمه ؛ هذه عظتى إياك ، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنتَ من الخاسرين » !

ومضى سعد يسدد مع جيشه الضربات إلى أعداء الله وأعداء عباد الله ، فكأنه يد القدر سلطها رب القضاء والقدر على من أكثروا فى الأرض الفساد ، وطغوا بين العباد ، وحينما أصاب المرض سعداً والمعركة دائرة ، لم يركن إلى الراحة والهدوء ، وإنما أقيم له عريش مرتفع ليقود المعركة منه وهو لا يستطيع الركوب ولا الوقوف ولا الجلوس ، فكان ينحنى على حافة العريش ويوجه الجنود فى المعركة .

وأمر سعد قارئ الجيش بأن يقرأ فى أثناء المعركة « سورة الأنفال » لأنها سورة القتال ، وسورة الحث على الجهاد حتى الاستشهاد ، وسورة الحض على البذل والفداء ، ففيها مثلا قول الله جل جلاله : [إذ يُوحى ربُّك إلى الملائكة أنِّى

---

(١) سعد من قبيلة بنى زهرة وهم أخوال النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد روى أن النبى فاخر بسعد فقال : « هذا خالى فليرنى امرؤ خاله » !

معكم فثبِّتوا الذين آمنوا ، سأُلْقِي في قلوب الذين كفروا الرُّعبَ ، فاضربوا فوقَ الأعناق ، واضربوا منهم كلَّ بنان] وقوله : [يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتُم الذين كفروا زحفاً فلا تُوَلُّوهم الأدبارَ ، ومن يُولِّهم يومئذٍ دُبُرَه إلا متحرفاً لقتال أو متحيِّزًا إلى فئة فقد باء بغضبٍ من الله ، ومأواه جهنمُ وبئس المصير] . وقوله : [وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكونَ الدينُ كلُّه لله، فإن انتَهوْا فإن الله بما يعملون بصير] . وقوله : [يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتُوا ، واذكروا اللهَ كثيرًا لعلكم تفلحون وأطيعوا اللهَ ورسوله ، ولا تَنَازَعُوا فَتَفشلوا وتذهبَ ريحُكُم ، واصبروا إن الله مع الصابرين] .

* * *

ومع هذه الصرامة الحازمة في سعد كان يحمل في صدره قلباً نقياً طهوراً ، لا يعرف حقداً ولا حسداً ، ولقد حدث ذات يوم أن قال الرسول عليه الصلاة والسلام لصحابته : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . وتطلع الصحابة فإذا سعد مقبل ، ولما سأله عبد الله بن عمرو بعد ذلك عن السبب في

استحقاقه هذه البشرى ، أجابه سعد بقوله : لا شيء أكثر مما نعمل ونعبد ، غير أني لا أحمل لأحد من المسلمين ضغناً ولا سوءاً .

وكان سعد يفتدي دينه بأغلى الأشياء لديه ، وقد يشير إلى هذا أنه حينما أسلم ، وكانت أمه على شركها ، قالت له غاضبة : يا سعد ، ما هذا الدين الذي قد أحدثته ؟ لتتركن دينك هذا ، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فيعيرك الناس بي ، ويقولون لك : يا قاتل أمه .

فقال لها سعد : لا تفعلي يا أماه ، فإني لا أترك ديني هذا لشيء .

فأضربت عن الطعام والشراب حتى ضعفت فجاءها فقال لها في عزم وتصميم : يا أماه ، والله لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت ديني ، فإن شئت فكلي ، أو لا تأكلي .

فلما رأت منه الجد أكلت . وفي هذه الحادثة وأمثالها نزل قول الله تعالى : [وَوَصَّيْنَا الإنسانَ بوالديه ، حملته أُمُّه وَهْناً على وهنٍ ، وفِصالُه في عامين ، أَن اشكرْ لي ولوالديك إليَّ المصير ، وإن جاهَداك على أن تُشْرِكَ بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما ، وصاحِبْهما في الدنيا معروفاً ،

واتّبع سبيلَ من أنابَ إلىّ ، ثم إلىّ مرجعُكم فأُنبئكم
عما كنتم تعملون] .

* * *

وسعد المؤمن المجاهد الذى شهد الغزوات والمعارك ، وجاهد فى سبيل ربه هنا وهناك ، وقام بالأعمال الفدائية ، لم يكن يرتزق من الحرب ، أو يقتصر على القتال ، بل كان يعمل وينتج ويكسب ، وبجهده وجده واجتهاده وإخلاصه استطاع أن ينال الكثير الطيب النظيف من الكسب ؛ فهو إذن يجمع بين الإيمان الوطيد ، والعمل المجيد ؛ والجهاد المشكور ، والكسب الطهور .

ثم يضيف إلى ذلك كله بذلا وكرماً ، وشهامة وأريحية ولقد بلغ من حبه للعطاء أن ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى أن يتبرع بثلثى ماله ، فأبى النبى ، فقال سعد : فبنصفه ؟ . فأبى النبي . فقال سعد : فبثلثه ؟ فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « نعم ، الثلث والثلث كثير ، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها ، حتى اللقمة تضعها فى فم امرأتك » .

والمهم هنا هو أن نتذكر أن سعداً الذى حاز ما حاز من المال والثروة لم يقبل لنفسه يوماً من الأيام أن يتطرق إلى ملكه

أى كسب خبيث ، أو متاع فيه ريبة أو شبهة ، وإنما هو العمل المصحوب بالجد والمداومة ، المغسول بالعرق يتصبب من جبينه الطاهر ، حتى إن سعداً يستطيع أن يؤكد أنه لم تصل جوفه لقمة من مال حرام فى يوم من الأيام ، وبذلك التطهر والتحرز والاحتياط من أخذ أى حق لسواه ، بارك الله جل جلاله فى قليله فصار جليلا ، وفى صغيره فأصبح كثيراً غزيراً ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم .

وإذا كان لكل عمل جزاء ، ولكل مجهود تقدير ، ولكل بطولة تكريم ، فما يكون تكريم سعد على إيمانه وإخلاصه ، وجهاده ونضاله ، وشهامته وكرمه ؟

إن جزاءه الطيب عند الله موكول إلى فضل الله الذى لا يحد ، وعطائه الذى لا يعد ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يزين حياة سعد بمكرمة تدل على طهارة نفسه ، وسمو قلبه ، وعلو مكانته عند ربه ، فدعا له قائلا : « اللهم استجب لسعد إذا دعاك » . وقال أيضاً : « اللهم سدد سهمه ، وأجب دعوته » .

واستجاب السميع العليم لنداء رسوله ورجائه ، فما دعا سعد ربه يوماً إلا استجاب دعاءه . ولقد سمع سعد رجلا فاجراً يسب الإمام علياً وطلحة والزبير ، فنهاه عن ذلك فلم ينته ، بل قال مستخفاً به : يتهددنى كأنما يتهددنى نبى . فدعا سعد وقال : اللهم إن كنت تعلم أنه سب أقواماً قد سلفت لهم منك سابقة ،

وأسخطك سبه إياهم ، فأره اليوم آية تكون للعالمين .

ولم يمض إلا قليل حتى عدت عليه ناقة شاردة ، فوطئته فمات من إصابته : [إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ] .

وامتدت حياة سعد بن أبى وقاص ، وطالت حتى تجاوز الثمانين من عمره ، ولكنه طول فى الخير ، وامتداد فى عمل البر ، فقد ظل على صفاته التى باهى بها المسلمون ، وتمناها المتمنون ، فهو ممن صدق فيهم قول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « خيركم من طال عمره وحسن عمله » .

وحينما حضرته الوفاة تذكر أن خير ما يعتز به المؤمن عند الله تعالى هو ما قدم من طاعة وجهاد ، وكانت عند سعد عباءة قديمة من صوف ، فلما أحس بالموت قال لأهله : كفنونى فيها ، فإنى كنت قد لقيت المشركين يوم بدر وهى على ، وإنما كنت أخبؤها لهذا .

رضوان الله على الأسد فى براثنه ، الفارس المجاب الدعوات!

الفدائى الفقيه

عبد الله بن أنيس

إن العمل الفدائى لا يفلح ولا ينجح إلا إذا نهض على دعامتين هما : الإيمان الدينى العميق ، والنضال الثابت الرشيد ، لأن الفدائى يحمل روحه على راحته ، ويمضى بها نحو غايته ، فإما نصر وإما شهادة ، والمنية لديه أخف من الدنية ؛ ولذلك كان شعار العمل الفدائى المعاصر : إنا فدائيون ، نفنى ولا نهون . وكأنهم فى هذا الشعار قد لحوا قبساً من نور الله جل جلاله الذى يقول :

[ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ، إن كنتم مؤمنين] .

ولو رجعنا إلى صفحات الفدائيين فى تاريخ الإسلام لوجدناهم قدوة فى ثبات العقيدة وتوطد الإيمان ، ولوجدناهم أمثلة للإقدام والثبات فى الميدان .

وهذا واحد منهم ، نراه سباقاً إلى الإسلام ، معتصما بعزة الله التى لا تضام ولا ترام ، متعرضاً لمواقف البأس والحمام ، وهو الصحابى الجليل : أبو يحيى عبد الله بن أنيس بن حرام القضاعى الأنصارى ، حليف بنى سلمة من الأنصار ، وهو جدير بأن يدار عنه الحديث أكثر من مرة ، لأنه تعود إظهار الروح الفدائية منذ وقت مبكر فى حياته .

وقد شهد بيعة العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار الذين قدموا مكة من المدينة ، وبايعوا الرسول على أن ينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم ونساءهم . وكانت هذه البيعة فى جوف الليل ، وفى مكان خفى مستور ، ومن حوله أخطار ، وقد تسللوا إليها كتسلل القطا مستخفين ، حسبما عبرت السيرة العطرة نفسها ، وهذا رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول لهم وقد اجتمعوا اجتماعهم السرى : « ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة ، فإن عليكم من المشركين عيناً ، وإن يعلموا بكم يفضحوكم » .

ومن هذا نفهم أن الإقدام على هذه البيعة كان فيه لون من الخطورة ، وكان نوعاً من العمل الفدائى .

وبعد أن أسلم عبد الله بن أنيس أخذ يقدم على أعمال فدائية جزئية متوالية ، فهو لا يبالى بجموع المشركين ، ولا بسلطانهم ، بل كان يهجم على أصنامهم مع معاذ بن جبل وغيره ، فيحطمون منها ما يحطمون ، ويلوثون منها ما يلوثون ، ليشعروا المشركين بضلالهم وفساد عقولهم .

ومن الأصنام التى سخروا بها صنم لعمرو بن الجموح الذى كان حينئذ مشركاً ، فكانوا يأتون ليلا إلى هذا الصنم ، ويقذفون به وسط مجمع القاذورات ، بعد أن يجعلوه منكساً على رأسه . وفى الصباح يأتى عمرو فيجده ملوثاً ، فيأخذه وينظفه ويقول : أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينّه .

وتكرر هذا أكثر من مرة ، فأخذ عمرو سيفاً ، ووضعه فى عنق الصنم ، وقال له كأنه يسمع أو يعقل : إنى لا أعلم من يفعل بك هذا ، فإن كان فيك خير فامنع نفسك ، وهذا هو السيف معك .

فجاء معاذ وعبد الله ومن معهما ، ونزعوا السيف من رقبة الصنم ، وربطوا مكانه كلباً ميتاً ، وألقوا الصنم فى مجمع القاذورات ، وأصبح الصباح ، وجاء عمرو فرأى ما رأى ، فأدرك وتدبر ، وعلم أنه كان على ضلال وخبال ، حينما عبد ما لا يضر ولا ينفع ، ولا يدفع عن نفسه سوءاً ، وهداه الله تعالى إلى نور الإسلام .

وبعد حين بعثه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى سرية فدائية وحده ، لكى يقتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى العنزى عدو الله ورسوله والمؤمنين ؛ وأتم عبد الله مهمته ، وعاد فرحاً إلى الرسول الذى قال له حين رآه : أفلح الوجه .

ثم أعطاه النبي مخصرة[1] — أى عصا — فلما لقى بها الناس قالوا له : ما هذه؟ فأجابهم : أعطانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمرنى أن أمسكها عندى . قالوا له : أفلا ترجع إليه فتسأله لم ذلك ؟

---

(١) المخصرة ما يمسك به الإنسان فى يده من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب ، وقد يتكئ عليه (النهاية) .

ورجع عبد الله إلى النبى وقال له : يا رسول الله ، لم أعطيتنى هذه العصا ؟

فقال : « هى آية بينى وبينك يوم القيامة ، إن أقل الناس المتخصرون يومئذ » . فحفظها عبد الله مربوطة بسيفه حتى مات فدفنت معه ، ولذلك كان يقال لعبد الله بن أنيس : « صاحب المخصرة » .

وقد يطيب لنا أن نؤكد هذا الحادث فنسمعه من فم عبد الله بن أنيس نفسه ، قال :

« دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنه قد بلغنى أن خالد بن سفيان بن نُبيح الهذلى يجمع لى الناس ليغزونى وهو بعُرَنة ، فائته فاقتله . قلت : يا رسول الله ، انعته لى حتى أعرفه .

قال : إذا رأيته وجدت له قشعريرة .

فخرجت متوشحاً سيفى حتى وقعت عليه وهو بعُرنة مع ظُعن (نساء فى الهودج) يرتاد لهن منزلا ، وحين كان وقت العصر ، فلما رأيته وجدت ما وصف لى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القشعريرة ، فأقبلت نحوه ، وخشيت أن يكون بينى وبينه مجاولة تشغلنى عن الصلاة ، فصليت وأنا أمشى نحوه ، أومئ برأسى للركوع والسجود .

فلما انتهيت إليه قال : من الرجل ؟ قلت : رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل ، فجاءك لذلك .

قال : أجل أنا فى ذلك .

فمشيت معه شيئاً ، حتى إذا أمكننى حملت عليه السيفَ حتى قتلته ، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبات عليه .

فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآنى قال : أفلح الوجه . قلتُ : قتلتهُ يا رسول الله . قال : صدقت . ثم قام معى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل فى بيته فأعطانى عصا ، فقال : أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس .

فخرجت بها على الناس فقالوا : ما هذه العصا ؟ قلت : أعطانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمرنى أن أمسكها . قالوا : أوَلا ترجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتسأله عن ذلك ؟ فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، لم أعطيتنى هذه العصا ؟ قال : آية بينى وبينك يوم القيامة ، إن أقل الناس المتخصرون يومئذ » .

ثم ها هوذا عبد الله يخرجه رسول الله خامس خمسة من المناضلين الفدائيين الأبطال أصحاب رسول الله ، ليدخلوا بين اليهود البغاة ، حتى تقيلوا المجرم الأثيم أبا رافع سلام بن الحقيق الذى اشتط فى عداوة الرسول ، وتأليب المشركين عليه ، وإعطائهم المئونات ليستطيعوا بها مقاتلة النبى وأصحابه .

واحتال عبد الله وصحبه ، حتى اقتحموا الحصن على اليهودى الخسيس أبى رافع ، وعاجاوه بطعنات سيوفهم ، وأجهز عليه عبد الله بن أنيس ، ولقد صاحت امرأة اليهودى عند دخولهم ،

وكاد يفتضح أمرهم ، وهم أحدهم بضربها بسيفه ، ولكنه تذكر أن الرسول نهاهم عن الاعتداء على النساء والأطفال ، ، فأمسك يده .

وبعد أن أتموا مهمتهم عاجلوا بالعودة إلى رسول الله وأخبروه وكادوا يختلفون فى تحديد من أجهز على عدو الله . فقال لهم الرسول : أرونى سيوفكم ، فأروه إياها ، فقال مشيراً إلى سيف عبد الله بن أنيس : هذا قتاه .

فزاد سرور عبدِ الله بهذا الإنصاف النبوى الكريم .

* * *

ولم يكن هذا العمل الفدائى المتواصل من عبد الله بن أنيس ــ رضى الله عنه ــ قائما على قوة العضلات ، وجراءة القلب ، وقوة العزم ، وصلابة الإرادة ، وعمق الخبرة بالقتال والنضال ، فحسب . بل كان قائما مع ذلك أو قبل ذلك على الإيمان الدينى الوطيد ، وعلى وضوح الرؤية الشاملة لمبادئ الإسلام وتعاليمه ، وعلى التعمق فى فهم الدين الحنيف ، فالمجاهد ابن أنيس الذى شهد غزوة بدر ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق ، وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يشغله العمل الفدائى عن التفقه فى الدين ، وطلب العلم الإسلامى من منبعه الأصيل ، وهو رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، فقد روى عنه الكثير من الأحاديث ؛ وكان يكرر سؤاله عما يريد أن يفقهه من أمور الدين .

بل يروى التاريخ الإسلامي بعد ذلك أن عبد الله بن أنيس رحل مسيرة شهر ليلاقى جابر بن عبد الله الأنصارى ، فيسمع منه بعض الأحاديث التى سمعها من الرسول حول المظالم والقصاص بين أهل الجنة والنار .

وهكذا كان عبد الله بن أنيس بطلاً فى الميدان ، وقدوة فى الحرص على تعاليم الإيمان .

رضوان الله على الفدائى الفقيه : عبد الله بن أنيس الذى توفى سنة ثمانين بالشام على المشهور .

الفدائية المؤمنة

نسيبة بنت كعب

من الظواهر التاريخية التى تستحق الدراسة والمتابعة أن المرأة العربية المؤمنة قد شاركت خلال مراحل النضال فى معارك مختلفة بألوان من النضال والكفاح ، فهى لم تكتف بالغضب أو الشكوى أو الأنين ، أو المقاومة السلبية للعدو الباغى ، أو إثارة العزائم فى صدور الرجال ، بل شاركت عملياً فى حركات المقاومة الفدائية التى تنهض على معانى التضحية والبذل والإقدام .

والإسلام يعلمنا أن المعركة الممتدة بين الإيمان والطغيان معركة من أجل الجميع ، لأنها تكون للدفاع عن الحريات . وصيانة الحرمات ، واستخلاص الوطن السليب من أيدى أعداء الله وأعداء عباد الله ، فيلزم أن يشترك فيها الجميع بطريق مباشر أو غير مباشر .

ولذلك قال الفقهاء إن الجهاد فرض كفاية ، يتحتم أن ينفر إليه العدد الكافى من أبناء الأمة ، يحملون أرواحهم على أكفهم ، ويخرجون إلى لقاء أقدارهم فى ساحة العزة والكرامة ، فإما أن يحققوا نصراً فيكونوا غزاة فى سبيل الله ، وإما أن يلاقوا شهادة تنقلهم إلى أسمى نعيم وأعلى تكريم فى رحاب الله جل

علاه ، فإذا بلغت المعركة مستوى التعبئة العامة ، أو الزحف العام ، ووطئ العدو أرض الإسلام والمسلمين بطغيانه وبهتانه ، أوجب الإسلام الجهادَ على الجميع ، فيصبح فرض عين ، فيخرج الشيوخ والشباب ، والرجال والنساء ، حتى إن الزوجة تخرج دون إذن زوجها ، لأن الموقف حينئذ موقف حياة للجميع ، أو مذلة للجميع .

والمرأة المسلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أدت واجبها فى ميادين النضال والكفاح : قامت أولا بالحراسة ، وإعداد الزاد والعتاد ، ووقفت مرابطة خلف الصفوف المناضلة ، تسقى العطشى ، وتداوى الجرحى ، وتمرض المرضى ؛ ثم تشترك فى القتال إذا احتاجت المعركة إليها فى حومة الوغى .

ولقد تألقت فى تاريخ المرأة المؤمنة أسماء نساء بقيت ذكريات كفاحهن ونضالهن نوراً يضىء الطريق لكل مسلمة تريد أن تجمع لنفسها بين عزة الدنيا ونعيم الآخرة ، من أمثال أم أيمن بركة بنت محصن ، زوجة زيد بن حارثة ، التى أسلمت فى أول الدعوة ، وهاجرت الهجرتين ، وبايعت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وشهدت غزوة بدر ، وغزوة أحد ؛ والرُّبيِّع بنت معوذ التى بايعت رسول الله بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وكذلك الفُرَيعة — أو الفارعة — بنت مالك ، وهى أخت أبى سعيد الخدرى ، وقد شهدت أيضاً بيعة الرضوان ، وهى البيعة التى عاهد المسلمون فيها ربهم ورسولهم على الموت فى سبيل

الله ، والتى قال الله فيها : [لقد رَضِىَ اللهُ عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعَلِم ما فى قلوبهم ، فأنزلَ السكينةَ عليهم وأثابهم فَتْحاً قريباً] كما قال : [إن الذين يُبايعونك إنما يبايعون اللهَ ، يد الله فوق أيديهم فمن نَكَثَ فإنما ينكث على نفسِه ، ومن أَوْفَى بما عاهدَ عليهُ اللهَ فسيؤتيه أجرًا عظيما] .

ومثل السيدة عائشة والسيدة أم سلمة ، فقد روى أنس قال : « لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سلمة ، وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما[1] ، تنقلان القرب على متونهما ، ثم تفرغانها فى أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغانها فى أفواه القوم .

ومثل صفية بنت عبد المطلب التى قاتلت فى غزوة بنى قريظة ، ونزلت من الحصن الذى كان يقيم فيه النساء والأطفال ، فقتلت أحد اليهود ، ثم عادت إلى حصنها .

وكذلك أم سنان الأسلمية التى خرجت فى غزوة خيبر ، وشاركت فى أعمال المعركة ، وقال لها الرسول : إن لك صواحب قد أذنت لهن ، فكونى مع أم سلمة .

---

(١) أى خلاخل سيقانهما .

وكذلك أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعي التي شهدت معركة القادسية مع سعد بن أبي وقاص ، وأخبرت أنها وصواحب لها قد شددن عليهن ثيابهن ، وأخذن الهراوى بأيديهن ، ومضين يعالجن الجرحى ، ويجهزن على من يستطعن من المشركين .

ومن أمثال « أم خلاد » التي شهدت غزوة أحد مع زوجها وولدها وأخيها ، واستشهد الزوج والولد والأخ ، فحملتهم هذه الصحابية الجليلة على بعيرها تريد دفنهم فى المدينة ، فلقيتها عائشة أم المؤمنين فى الطريق ، فقالت لها : عندك الخبر يا أم خلاد ، فما وراءك ؟

قالت أم خلاد : أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالح ، وكل مصيبة بعده جللٌ (أى هينة) واتخذ الله من المؤمنين شهداء .

قالت عائشة مشيرة إلى من حملت من الشهداء : من هؤلاء؟

فأجابت أم خلاد : أخى ، وابنى خلاد ، وزوجى عمرو بن الجموح .

قالت عائشة : فأين تذهبين بهم ؟

أجابت : إلى المدينة أقبرهم فيها .

وزجرت أم خلاد البعير ليتابع مسيره فما استطاع ، فلما وجهته جهة الميدان تحرك وأسرع حتى بلغ مكان المعركة ، وهناك دفنهم الرسول معاً ، وقال لها : « يا هند ، ترافقوا فى الجنة : عمرو بن الجموح ، وابنك خلاد ، وأخوك عبد الله » .

ففرحت وقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى معهم .

وعمرو بن الجموح هو الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبيل غزوة أحد : « يا رسول الله ، إن أولادى يريدون أن يحبسونى عن الخروج معك ، والله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة » .

وكان أولاده قد قالوا له : إن الله قد وضع عنك الجهاد ، ولك عذرك . وذلك لأنه كان مصاباً فى رجله ، والقرآن يقول : [ليس على الأَعْمَى حَرَجٌ ، ولا على الأَعرَج حرج ، ولا على المريض حرج] .

وعرض الرسول على أولاده أن يحققوا رغيبته ، فاستجابوا ، وخرج ونال الشهادة ، وهنا قال الرسول : « والذى نفسى بيده لقد رأيته وهو يطأ بعرجته فى الجنة » .

وعمرو بن الجموح هو الذى قال عنه النبى لنفر من بنى سلمة : « سيدكم عمرو بن الجموح » .

وكان لعمرو أربعة أبناء يجاهدون معه .

* * *

ومن هؤلاء المجاهدات المضحيات الصحابية الجليلة أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو الأنصارية ، وهى من طليعة نساء المدينة اللواتى سارعن إلى الإسلام ، فقد كانت

إحدى امرأتين رحلتا مع طلائع الأنصار إلى مكة حيث كانت المبايعة منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيعة العقبة الثالثة .

ثم خرجت نسيبة إلى غزوة أحد مع زوجها زيد بن عاصم ، وولديها حبيب وعبد الله ، أى أن الأسرة كلها خرجت لتؤدى واجب الوفاء والمضاء فى سبيل الله ، وتطلع رسول الله عليه الصلاة والسلام – وهو فى طريقه إلى الغزوة – فرأى هذه الأسرة المؤمنة المجاهدة تمضى إلى الميدان فى ثقة ويقين ، فقال لهم : « رحمكم الله أهلَ بيت ، بارك الله فيكم أهل بيت » .

فانتهزت أم عمارة هذه الفرصة الطيبة وقالت : يا رسول الله ، ادع اللهَ أن نرافقك فى الجنة .

فقال : اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة .

فطار الفرح بنسيبة ، وقالت : ما أبالى ما أصابنى من أمر الدنيا بعد ذلك .

وبدأت الغزوة ، وقاتلت فيها أم عمارة بشجاعة وجراءة ، وأصاب جسمها اثنا عشر جرحاً ، ما بين طعنة برمح ، أو ضربة بسيف ، وكان أحد هذه الجراح من ضربة لئيمة مجرمة ضربها بها عدو الله عمرو بن قمئة المشرك ، فأحدثت جرحاً عميقاً بعيد الغور فى كتفها .

وهذه هى أم سعد بنت سعد بن الربيع تلتقى بعد ذلك

بنسيبة ، فتسألها عن ذكريات جهادها ونضالها ، وتقول لها : يا خالة ، أخبريني خبرك يوم أحد . فتقول أم عمارة : خرجت فى أول النهار أنظر الناس ، ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى أصحابه . والدولة والريح للمسلمين (أى كانوا منتصرين حينئذ) ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقمت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى بالقوس ، حتى خلصت الجراح إلىّ .

فسألتها أم سعد عن جرحها العميق فى كتفها ، فقالت لها : من أصابك بهذا ؟ . قالت : ابن قمئة أقمأه الله (أى أذله الله وحقره) لما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ابن قمئة يقول : دلونى على محمد ، لا نجوتُ إن نجا . فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضربنى هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان .

وهكذا لم تخف ربيبة الإسلام وبنت الإيمان من الضرب أو الطعان ، بل أقبلت إنسانةً ثائرة عازمة على أن تبذل كل طاقتها فى سبيل دينها وحريتها وكرامة أمتها ، فقابلت ضربة العتل الأثيم بضربات لها قوتها وشدتها ، ولكن اللعين كان قد حصن جسمه ، فوضع عليه درعين لا درعاً واحدة ، ونسيت أم عمارة حينئذ كل شىء إلا أنها فى ميدان ، يحتاج إلى وفاء وفداء ، فمضت تطعن وتضرب ، حتى قال فيها رسول الله صلى الله عليه

وسلم: « ما التفتُّ يميناً ولا شمالا إلا رأيت أم عمارة تقاتل دونى » .
ولقد رأى النبي فى غزوة أحد رجلا معه ترس لا يتترس به ، وأم عمارة ليس معها ما تحمى به نفسها ، فقال الرسول لذلك الرجل مشيراً إلى أم عمارة : « ألق ترسك لمن يقاتل » ، وأعطاها الرجل ترسه فتترست به ، ومضت تواصل القتال .

وطُعنت أم عمارة طعنات كثيرة ، ورأى الرسول الدم يسيل من جسمها ، فنادى على ابنها ليعاونها قائلا : « يا ابن أم عمارة ، أملك ، أملك ، اعصب جرحها ، بارك الله عليكم من أهل بيت ، مقام أملك خير من مقام فلان وفلان » .

فعادت أم عمارة تسأل الرسول أن يدعو ربه لتكون هى وأسرتها معه فى الجنة ، فدعا لها بذلك ، فطارت فرحاً وقالت : « ما أبالى ما أصابنى من الدنيا » .

وحينما جُرح ابنها عبد الله، أخذ الدم يسيل منه بغزارة ، فقال له النبي : « اعصب جرحك » ، وسمعت أم عمارة قول الرسول ، وكان معها عصائب قد علقتها فى وسطها ، فأخذت منها ، وربطت لابنها جرحه ، ثم قالت له : « انهض فضارب القوم » .

فقال لها النبي معجباً: « ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟ »
ثم شاهد النبي بعد قليل من أصاب ابنها ، فأشار النبي إليه وقال لها : « هذا ضارب ابنك » ، فسارعت نحوه وضربته فى ساقه ، فوقع على الأرض ، ثم أجهزت عليه ، فقال لها النبى :

« الحمد لله الذى أظفرك ، وأقر عينك من عدوك ، وأراك ثأرك بعينيك » .

ومضت الأيام ، وظلت نسيبة تخدم الإسلام ، وتؤدى واجبها فى الحرب والسلام ، وشهدت مع رسول الله بيعة الرضوان ، وهى بيعة المعاهدة على الشهادة فى سبيل الله ، ولحق الرسول بربه تبارك وتعالى ، وظهر اللعين مسيلمة الكذاب بتمرده المجرم ، ووقف فى وجهه المؤمنون ، وفيهم حبيب بن زيد بن عاصم ، وهو ولد نسيبة ، ووقع حبيب فى يد مسيلمة أسيراً ، فعذبه ، فاحتمل صابراً .

وجعل مسيلمة يقول لحبيب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم .

فيقول له : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع .

فقطّع مسيلمة جسم حبيب حتى مات ! !

وعلمت نسيبة بمصرع ابنها ، فنذرت ألا يصيبها غسل حتى يُقتل مسيلمة ، وخرجت إلى معركة « اليمامة » مع ابنها الآخر عبد الله ، وكانت حريصة على أن تقتل مسيلمة بيدها ، ولكن القدر أراد أن يكون القاتل له هو ابنها عبد الله الذى ثأر لشقيقه حبيب .

تقول أم عمارة : تقطعت يدى يوم اليمامة وأنا أريد قتل مسيلمة ، وما كان لى ناهية — أى مانع — حتى رأيت الخبيث

مقتولا . وإذا ابنى عبد الله بن زيد يمسح سيفه بثيابه ، فقلت له : أقتلته ؟ قال : نعم . فسجدت لله شكراً .

وقد اشترك فى قتل مسيلمة مع عبد الله وحشى بن حرب ، وبمقتل هذا الطاغية تطهرت الأرض العربية المؤمنة من المؤامرة الأثيمة التى أريد بها القضاء على كلمة الإسلام ووحدة المسلمين .

* * *

إن المرأة المؤمنة حين ترى قومها وأمتها فى مرحلة فاصلة من مراحل نضالها الواسع ، وكفاحها الشامل ، تنسى زينتها ومتعتها ، وتنسى ثيابها وحليتها ، وتتذكر على الدوام أن بلادها فى حاجة إلى كل نبضة من نبضات قلبها ، وكل خطوة من خطوات قدميها ، وكل حركة من حركات يديها ، وكل ومضة من ومضات عقلها ، وكل جهد مادى ومعنوى من جهودها ، وتظل هكذا على طريق النضال والكفاح ، حتى تتحرر الديار ، ويزول العار ، ويؤخذ الثأر ، ويومئذ تشرق شمس الحياة العزيزة الكريمة من جديد .

وصية فدائية

من قائد لابنه القائد

إننا سنظل بحاجة إلى الاستمداد من منابع الهدى والرشاد، لنفقه مبادئ النضال والجهاد ، فنزداد بصراً بسبيلنا ، وتوفيقاً فى عملنا ، وإصراراً على طلب حقنا ، واستمراراً فى البذل والتضحية من أجل حرماتنا ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وليكن استمدادنا هذه المرة من شيخ البلاغة وإمامها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو سيف الله الغالب الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه ، وهو القائل : « لا أداهن فى دينى ، ولا أعطى الدنية فى أمرى » ، « استهينوا بالموت فإن مرارته فى خوفه » ، « الوقوع فى المكروه أسهل من توقع المكروه » ، « الناس من خوف الذل فى ذل » ، « الشريف دون حقه يقتل » ، « كن للعدو المكاتم أشد حذراً منك للعدو المبارز » ، « الصبر مطية لا تكبو » ، « الصبر على المشقة يترقى بك إلى شرف الفوز الأكبر » .

يروى التاريخ أنه حدث فى إحدى المعارك أن أعطى

الإمام علىّ الراية لابنه محمد بن الحنفية[١] ، وهو ولده من زوجته خولة بنت جعفر . وسُمّيت بالحنفية لأنها من قبيلة بنى حنيفة العربية — ثم قال له يوصيه : « يا بنى ، تزول الجبال ولا تزل ، عضّ على ناجذك ، أعِر الله جمجمتك ، تدْ فى الأرض قدمك ، ارم ببصرك أقصى القوم ثم غُضّ بصرك ، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه » !

وقد أراد علىٌّ من ولده بهذه الوصية أن يلتزمها ويطبقها ، حتى يكون قدوة لغيره من المجاهدين والمحاربين ، ولنتذكر أن الموصى هنا هو البطل المقدام الذى كان يدخره رسول الله صلى الله عليه وسلم للموقف العصيب واليوم الرهيب ، فإذا ضعف حملة اللواء مثلا عن الفتح استنهض النبى همة على ، وقال عنه : « سأعطى الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » فإذا علىّ يحقق الظن الحسن ، ويفتح الفتح المبين .

وما أجمل ابتداء علىّ فى وصيته حين يفتتحها بذلك النداء الحبيب ، وتلك الكلمة الحلوة العذبة ، الدالة على الحب والإخلاص : « يا بنى » أى يا أعز الناس علىّ ، ويا أقربهم إلىّ ، ويا أغلاهم عندى ، إنك ولدى ، وفلذة كبدى ، ومع ذلك أدعوك إلى موقف البذل والثبات ، فإنه شرف لو تعلم عظيم.

وأول شعار فى هذه الوصية هو قول الإمام : « تزول الجبال

---

(١) توفى فى المدينة سنة إحدى وثمانين ، ودفن فى مقبرة البقيع ، وعمره خمس وستون سنة .

ولا تزل » وهذا كلام فيه معنى الشرط . كأنه قال : إن زالت الجبال فلا تزل أنت ، وهذا للمبالغة فى الحث على الثبات ، وقد كان بعض العرب يقولون على هذا النمط : لا نفر حتى يفر الحجر . فيابنى . لو فرضنا أن الجبال الراسية الراسخة تتحرك أو تضطرب أو تتزلزل أو تتزحزح عن مكانها ، فواجبك أن تظل أنت راسخاً راسياً مطمئناً بذكر الله ، [أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القلوب] ، وأن تبقى حيث يريدك بارئك ، وحيث يتطلبك الوفاء والإخلاص .

ويا بنى ، كن مثلا من أمثلة الثقة واليقين ، مستقرًّا فى إيمانك ، سائرًا على طريقك ، مصرًّا على حقك ، لا تتبدل ولا تتحول ، وصلوات الله وسلامه على رسوله حين أوجز للمؤمن النصح فقال : « قُلْ آمنتُ بالله ، ثم اسْتَقِمْ » . والإيمان الوطيد العميق الصادق هو أساس الاستقامة والمداومة على طريق الحق .

وهذا التوجيه العلوى مستمد من نور القرآن المجيد الذى يعلِّم المؤمنين به كيف يثبتون فى الجهاد ، وكيف يطمئنون فى مواقف الهول ، وكيف يُقبلون ولا يفرون ، وكيف يتقدمون ولا يتأخرون ، إلا لحكمة : كالمخادعة للعدو ، أو إرادة الانضمام إلى طائفة أخرى من الجيش المؤمن المناضل :

[ياأَيُّها الذِينَ آمنوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فلا تُوَلُّوهم الأَدْبَار ، وَمَنْ يُوَلِّهم يَوْمئذٍ دُبُرَه إلاَّ مُتَحرِّفاً لِقتالٍ ، أَو مُتَحَيِّزًا

إلى فِئَةٍ ،فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ،وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المصير]
ولقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الفرار من الزحف – أى من الجهاد المشروع الواجب المفروض – كبيرة من أشنع الكبائر التي يتوعد الله فاعلها بأشد ألوان العقاب .

كما أخبرنا أن التضحية الصادقة هنا هى مفتاح الغفران والرضوان ، فقد سأله بعض الناس عن الجهاد : هل يكفّر الخطايا ؟ . فأجابه : « إن قُتلت فى سبيل الله وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر » أى غفر الله لك وأدخلك من الجنة الفردوس الأعلى : [وما يَنْطِقُ عن الهوَى ، إنْ هوَ إلاَّ وحْيٌ يُوحَى] .

* * *

ثم قال الإمام على لولده : « عض على ناجذك » . والمراد بالعض الضغط الشديد ، والناجذ واحد النواجذ ، وهو الضرس بين الأضراس ، أو الناب بين الأنياب ، وهذا التعبير العربى البليغ كناية عن العناية بالأمر والاهتمام له والعزيمة فيه ، لأن من عادة الإنسان إذا تحفز لشىء ، أو عنى به ، أو أقدم عليه بهمة ، أن يضغط على أسنانه ، كأنه يعاون إرادة قلبه بالضغط على أسنانه . وكأن الإمام عليًّا يحث ابنه على أن يقدم نحو واجب النضال والكفاح فى همة نفسية ، وقوة حسية ، ويقظة روحية ، وصلابة بدنية ، حتى يتحقق له العزم الجامع بين

صدق الباطن وصلاح الظاهر .

وإذا عض الإنسان على أسنانه اشتدت أعصاب رأسه ، وتماسكت عظامه كما قال السابقون ، بل لقد قالوا : إن العاضّ على نواجذه ينبو السيف عن دماغه ، لأن عظام الرأس تشتد وتصلب ، وكأن الإمام يريد من ابنه أن يستحضر قوته ، ويستجمع عزيمته ، ويستنهض همته ، ليكون متحفزاً متجمعاً بجسه ونفسه ، أو لعله يريد منه أن يثير فى نفسه عوامل الغيظ من أعدائه الظالمين له ، وكوامن الغضب على المنتهكين حرمته .

وهذا يشير إلى ما يلزم من شحن نفوس المجاهدين بقدسية المعركة التى يخوضونها ، وشرف الهدف الذى يريدونه ، وفظاعة الجرائم التى ارتكبها أعداؤهم ، ووجوب غسل العار والأخذ بالثأر ممن هزئوا بمقدساتهم ، وتطاولوا على حرماتهم ، فإن الهوان والإيمان لا يجتمعان .

ولقد قال الإمام على فى موطن آخر : « عضوا على النواجذ ، فإنه أنبي للصوارم عن الهام » وأنبي : أى أبعد ، والصوارم : جمع صارم وهو السيف القاطع ، والهام : جمع هامة وهى الرأس ، أى إن الغضب الكريم الذى يثير المظلومين المهضومين المعتدَى عليهم يفجر فيهم طاقات القوة والمنعة ، فلا تكون رءوسهم فريسة طيعة لسيوف أعدائهم ، ولو كانت قاطعة .

ثم قال الإمام لابنه : « أعر الله جمجمتك » والإعارة هى الإقراض والسلف ، والجمجمة هي الرأس ، ويكنى بها عن

حياة الإنسان ، لأن الإنسان متى زال عنه رأسه فقد زالت حياته الدنيوية ، والرأس هو أشرف جزء فى الإنسان ، فهذا من إطلاق اسم الجزء على الكل ؛ والمعنى : قدّم نفسك وحياتك عارية وقرضاً وسلفاً لربك ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك ، والذى لا يضيع عنده قرض ولا سلف ، والذى يعيد إليك رأسك ، يعيده إليك فى حياة أسمى وأعلى وأبقى ، وكن مستعداً للتضحية بحياتك فى سبيل بارئك ، متى دعاك إلى التضحية بها فى مجالات الحق والدفاع عن الحرية والعزة والعقيدة . وما أفضلها من تضحية ، وما أربحها من تجارة .

وما أروع الرسول عليه الصلاة والسلام حين قال : « والذى نفسى بيده لوددت أنى أُقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل » .

وقد نفهم من عبارة : « أعر الله جمجمتك » أن المؤمن الشجاع المقدام قد يكتب الله له السلامة والنجاة ، لأن الإمام استعمل مادة « الإعارة » ، والعارية مردودة ، والسلف عند الكرام مصون يعود إلى أصحابه ، فكيف به عند أكرم الأكرمين :
[مَنْ ذا الذى يُقْرِضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضاعِفَه له ، وله أجرٌ كريم] .

ولذلك قال بعض السابقين : لو أن الإمام قال لولده : « بع

الله جمجمتك » لكان ذلك إشعاراً له بأنه سيلق الشهادة ، على حد قوله تعالى : [إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُم وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجنة] . وكأن عبارة : «أعر الله جمجمتك»[1] بشرى أجراها إلهام الله على لسان الإمام على ، لتكون تفاؤلا وإشارة إلى أن ابنه سينتصر ، وسيحفظ الله عليه حياته ، ويرد إليه عاريته .

وعاد الإمام يقول لابنه القائد الشاب : « تِدْ فى الأرض قدمك » . وكلمة «تِدْ» معناها اجعل قدمك فى الأرض ثابتة كالوتد المغروس فيها ، فهو ثابت لا يتحرك ، وهذا التعبير العلوى العميق يتضمن التوجيه إلى التمكن من أرض المعركة ، بعد حسن اختيارها ، وحسن تحصينها ، واستخدام كل جزء فيها على أحسن وجه ، وبذل كل جهد لكى يكون الجيش المؤمن المناضل مسيطراً على الميدان ، متمكناً منه ، ثابتاً فيه ثبات الأوتاد فى باطن الأرض ، كما أنه يوجه إلى الثبات والاستقرار ، والاحتفاظ بالموقع الذى يجب الاحتفاظ به فى المعركة ، حتى لا يُحدث الأعداء ثغرة فى صفوف المجاهدين ، أو يحتلوا قطعة من أرض المؤمنين ، ولذلك طالب القرآن الكريم برسوخ الأقدام فى مواطن القتال والالتحام ، فقال :

---

(١) يروى أن يزيد بن المهلب أخذ هذه اللفظة فخطب بها أصحابه فى معركة فقال لهم مشيراً إلى أعدائهم : « أعير وفى سواعدكم ساعة ، تصفقون بها خراطيمهم ، فإنما هى غدوة أو روحة ، حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين » .

[يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون] .

ولا شك أن الثبات فى القتال يحتاج إلى مجاهدة الفزع ومقاومة الخوف ، والتغلب على شهوات النفس وأهوائها ، وحملها على ما يليق بها ، وإن كان مر المذاق ، أو شديد الاحتمال ، فقد قال الإمام على : « أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه » .

وحينما قال القرآن الكريم : [إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص] أراد أن يلفت أنظار المجاهدين وأفكارهم إلى أن البنيان المرصوص الكامل يقام على أساس وخطة ونظام ، ويحتاج إلى استكمال وإتمام ، وهو بعد هذا يكون قوياً متيناً ، فتثبيت الأقدام فى الأرض كما ينصح الإمام يتضمن الحث على الإعداد والاستعداد ، وحسن البلاء ، وطول الصبر — أو « النفس » — فى الجهاد .

ثم قال الإمام على : « ارم ببصرك أقصى القوم ، ثم غض بصرك » أى أحط بجميع حركات الأعداء ، ومواقعهم وأعدادهم وأسلحتهم ، واجعل دراستك لأحوالهم دراسة شاملة كاملة ، تصل آخر جزء من أمورهم وشئونهم ، حتى تكون على بصيرة من موقفك وموقفهم ، وحتى تقابلهم بما يهزمهم ، والحديد بالحديد يفلح .

وبعد استكمال دراستك توكل على ربك فى عزم وحزم ، ولا تظل مضطرب النظر حائر البصر ، ولا تجعل بصرك موزعاً أو مفزّعاً ، بل غض بصرك المتردد يميناً وشمالا ، ولا تجعله ينبهر بما يرى منهم فتفزع أو تخاف ، ولا يهولنك شيء منهم .

وكان العرب يصفون الشجاع بقولهم : « فلان غَشمشم » أى لا يشغل نفسه بالتطلع إلى ما بين يديه أو ما حوله فى أثناء الحرب ، بل يقتحم ما أمامه من أخطار ، مع قلة مبالاة بالأهوال ، ومن شعر الشريف الرضى فى الفخر قوله :

يعودُهم منى غلام غشمشم معين على البأساء غير مُعان!

وكان سيد الشهداء حمزة يقدم فى المعركة لا يشغل نفسه بالنظر إلى ما أمامه أو حوله .

ولا تعارض بين قوله : « ارم ببصرك أقصى القوم » وقوله : « غضّ بصرك » لأن الأمر الأول يعنى أن يفتح عينيه جيداً ، ويدرس أحوال عدوه كلها ، ثم إذا بدأ القتال أبعد عنه عوامل الفزع ، فلا تبهره قوة العدو ، ولا تخيفه كثرته ، وكأنه يقول له : إذا أقدمت على القتال والهجوم ، فاقصد إلى غايتك المرسومة المدبرة على بصيرة ، فإن طريق النصر واضح : إعداد واستعداد ، ثم إقدام وجهاد ، ثم حرص على شرف النصر أو نعمة الاستشهاد .

وهذا لا يتيسر على وجهه الطيب إلا مع التحلى بنعمة الإيمان ، فإنها هى التى تعمر صدر صاحبها بالثبات

والاطمئنان ، وتورثه النعم والسعادة ، ولذلك قال الله تعالى :
[يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي]. ولعل هذا هو الذى جعل الإمام يختم وصيته بقوله : « واعلم أن النصر من عند الله سبحانه » . وهذا مستمد من هدى القرآن الذى يقول :
[وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم] . ويقول :
[بل الله مولاكم وهو خير الناصرين] . وإنما يتولى الله بالنصر الذين يؤمنون به وينصرونه ، بطاعته والاستجابة لأوامره :
[إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم] ، [إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد].

ومتى انطوى صدر المجاهد المناضل على أن النصر من عند الله ، انقلب ليثاً هصوراً يشعر بأن الله معه ؛ يسنده ويؤيده ، ويهبه الفوز العظيم : [ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز] .

* * *

ولقد كان الإمام على جديراً كل الجدارة بأن يصوغ لابنه هذا المنهاج الفدائى الرائع ، فإنما صاغه من وحى بطولته الفذة التى عرفتها الميادين والمعارك ، وهو الذى أعطى ابنه محمداً راية فى إحدى المعارك ، وقد تكاثرت السهام من حولهما كأنها شآبيب المطر ، وقال له :

اطعن بهــا طعنَ أبيك تُحمَد
لا خير في الحرب إذا لم توقــدِ
بالمشرفيِّ والقنا المسدد !

وحينما تردد محمد في إحدى المعارك قال له أبوه مشجعاً وحاثاً على المضى فى الجهاد : امح الأولى بالأخرى .

وكان محمد جديراً كل الجدارة بأن ينفذ هذه الوصية ، فهو الذى جاءه رجل وقال له : جئتك فى حويجة (أى حاجة صغيرة) . فقال له : فاطلب لها رجيلا (أى رجلا صغيراً) .

ولا عجب فهو رجل جليل تناسبه جلائل الأعمال : « إن العظائم كفؤها العظماء » .

وهو القائل : « من كرمت عليه نفسه لم يكن للدنيا عنده قدر » .

وحينما أراد بعض الخبثاء أن يفسد بين محمد وأخويه الحسن والحسين وقال له ذلك الخبيث : لماذا يعرِّضك أبوك للحرب ، ولا يعرض أخويك الحسن والحسين ؟ أجابه محمد مفوتاً عليه غرضه الدنىء : « إنما هما عيناه ، وأنا يمينه ، فهو يدفع عن عينيه بيمينه » !

ويروى أن الأنصار قالت للإمام على : يا أمير المؤمنين ، لولا ما جعل الله تعالى للحسن والحسين ، لما قدَّمنا على محمد أحداً من العرب . فقال : أما إنه قد أغنى وأبلى ، وله فضله ، ولا ينقص فضلُ صاحبيه عليه ، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله تعالى إليه .

فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنا والله لا نجعله كالحسن والحسين ، ولا نظلمهما له ، ولا نظلمه لفضلهما عليه حقه .

ولمحمد هذا قال خزيمة بن ثابت :

محمد ، ما فى عودك اليوم وصمة
ولا كنت فى الحرب الضروس معردا[1]

أبوك الذى لم يركب الخيل مثله
على ، وسماك النبى : محمدا

فلو كان حقا من أبيك خليفة
لكنت ، ولكن ذاك ما لا يرى بدا

وأنت بحمد الله أطول « غالب »[2]
لسانا ، وأنداها بما ملكت يدا

وأقربها من كل خير تريده
قريش ، وأوفاها بما قال موعدا

وأطعنهم صدر الكمى برمحه
وأكساهم للهام عضبا مهندا

سوى أخويك السيدين ، كلاهما
إمام الورى ، والداعيان إلى الهدى

أبى الله أن يعطى عدوك مقعدا
من الأرض ، أو فى الأوج مرقى ومصعدا

رضوان الله تعالى على الجميع .

---

(١) معردا : أى منهزما .

(٢) غالب : يقصد به ذرية غالب بن فهر بن مالك .

فدائيون يتنافسون على الموت

قال لى قائل : ألا ترى معى أن صدر الإسلام كان عصراً ذهبيًّا فريداً ، لا يمكن أن يتكرر أو يعود ؟

فأجبته قائلا : إننى مع إيمانى بأن خير القرون هو القرن الذى أشرقت جوانبه بنور رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أومن بأن الخير لا ينقضى ولا يمحى من أمة محمد سيد المرسلين ، وهو الذى أخبرنا بأن أمته لا تجتمع على ضلالة ، والخير فيه وفى أمته بمشيئة الله جل جلاله إلى يوم القيامة .

وهذا موقف من تاريخنا المعاصر يؤيد ما أقول : فنحن نعرف أن الإنجليز قد احتلوا أرض فلسطين فى أواخر سنة ١٩١٧ ، وحرصوا منذ ذلك التاريخ على أن يحققوا وعدهم الأثيم الزنيم المعروف باسم « وعد بالفور » ، وهو الذى قضوا فيه بانتزاع فلسطين العربية الإسلامية من أيدى أصحابها الشرعيين ، ليعطوها إلى اليهود غنيمة باردة ، حتى تقع بذلك أكبر مهزلة فى التاريخ ، وهى أن يعطى من لا يملك من لا يستحق .

ولم يرض أهل فلسطين بهذا الواقع المر الأليم ، فأخذوا يقاومون ويجاهدون قدر طاقتهم واستطاعتهم ، والعرب والمسلمون يومئذ لاهون عنهم غافلون ، مشغولون بشواغل الحياة أو مطامع

الأحياء؛ وكان أهل فلسطين فى نضالهم لا يواجهون عدوًّا واحداً، بل يواجهون عدوين شرسين مجرمين ، هما المطامع الاستعمارية متمثلة فى انجلترا ، والصهيونية العالمية متمثلة فى اليهود الذين عاونهم المكر الإنجليزى على أن يدخلوا أرض فلسطين و يغتصبوها من أهليها .

وتغلغل اليهود الطارئون كما أرادوا فى أرض فلسطين ومرافقها وطاقاتها ، ولكنهم فى سنة ١٩٢٨ توقحوا فزحفوا مدججين بالسلاح إلى « حائط البراق الشريف » فى القدس ، وهو الذى يعد جزءًا لا يتجزأ من حرم المسجد الأقصى ثالث مساجد الإسلام المقدسة ، ورفعوا فوقه العلم اليهودى ، وهم يهتفون : الحائط حائطنا .

وكان الإنجليز حينئذ يؤيدون اليهود بكل أنواع التأييد ؛ وأهل فلسطين عزل بلا سلاح يذكر ، ومع ذلك لم يسكتوا ، وأخذوا يدافعون عن حرماتهم ومقدساتهم ، واشتعلت منهم ثورة سنة ١٩٢٩ ، وسقط كثير من القتلى والجرحى المسلمين بنيران اليهود والإنجليز معاً ، وعلى الرغم من ذلك توقح المندوب البريطانى — وتاريخ بريطانيا فى الوقاحة طويل عريض — وأخذ يصدر أحكامه بالإعدام على من يهوى ويختار من أهل فلسطين المجاهدين .

وكان فى طليعتهم ثلاثة من الرجال الأبطال ، الفدائيين المؤمنين ، الذي وصلوا حاضر الجهاد الإسلامي بماضيه ،

وهم الشهداء الأوفياء : فؤاد حجازى ، ومحمد جمجوم ، وعطا الزير . وحدد صباح يوم الثلاثاء ١٧ يونيه (حزيران) سنة ١٩٣٠ موعداً لتنفيذ الإعدام فى هؤلاء الأبطال الثلاثة . على أن تكون الساعة الثامنة موعداً لإعدام الشهيد فؤاد حجازى ، والساعة التاسعة موعداً لإعدام الشهيد محمد جمجوم ، والساعة العاشرة موعداً لإعدام الشهيد عطا الزير .

واستقبل الأبطال الحكم بشجاعة نادرة وبطولة رائعة ، وكان فؤاد حجازى شاباً فى الثانية والعشرين من عمره ، وحينما جاءه أهله ليزوروه قبيل تنفيذ الحكم ، قال لهم فى ثبات وإيمان : « إذا كان إعدامنا نحن الثلاثة ، يزعزع شيئاً من كابوس الإنجليز عن الأمة العربية الكريمة ، فليحل الإعدام فى عشرات الألوف مثلنا ، لكى يزول هذا الكابوس عنا تماماً » !

وأما الشهيد عطا الزير فقد قال : « نحمد الله على أننا نحن الذين لا أهمية لنا نذهب فداء الوطن ، لا أولئك الرجال الذين يستفيد الوطن من جهودهم وخدماتهم » . وأمّن الشهيد محمد جمجوم على كلام زميله ، وطلبوا حناء ليخضبوا بها أيديهم كما جرت العادة عند أهل بلدة « الخليل » الفلسطينية فى الأعراس والأفراح .

وأعدم الشهيد فؤاد حجازى أولا ، وهو ثابت مستبشر فخور بأنه كان أول الشهداء الثلاثة لقاءً لربه ، وصوّر الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان روعة هذه الساعة ، فقال

على لسانها :

أنا ساعة النفس الأبيه   الفضل لى بالأسبقيه
أنا بكر ساعات ثلاث   كلها رمز الحميه
قسما بروحك يا « فؤاد »   صعدت جوانحها زكيه
عاشت نفوس فى سبيل   بلادها ذهبت ضحيه

وتخاصم محمد جمجوم وعطا الزير ، كل منهما يريد أن يسبق أخاه فى ساعة التنفيذ ، وسبق عطا الزير فذاق طعم الشهادة ، وكأنه يرتشف رضاباً أو رحيقاً ، وصور الشاعر هيبة ساعته ، فقال على لسانها :

أنا ساعة الرجل الصبور   أنا ساعة القلب الكبير
بطلى أشد على لقاء الموت   من صم الصخور
يلقى الإله مخضب الكفين   فى يوم النشور
قسما بروحك يا « عطاء »   وجنة الملك القديز
وصغارك الأشبال تبكى   الليث بالدمع الغزير
ما أنقذ الوطن المفدى   غير صبار جسور !!

وكان محمد جمجوم ثالث الشهداء ، وحينما أمروه بالتقدم إلى المشنقة طلب منهم أن يفكوا الأغلال من يديه ، حتى يتقدم طائعاً مختاراً ، فرفضوا ، فما كان منه إلا أن استجمع كل عزيمته ، وحطم الأغلال بقوة عضلاته ، ثم تقدم باسماً فذاق طعم الشهادة ، وصور الشاعر هيبة تلك الساعة ، فقال على لسانها :

أنا ساعة المـــوت المشرف ‏ كل ذى فعـــل مجيـــد
بطلى يحـــطم قيـــده ‏ رمـــزاً لتحطيم القيـــود
قسما بروح « محمـــد » ‏ تلقى الردى حلـــو الورود
قسما بأمك عنـــد موتك ‏ وهى تهتـــف بالنشيـــد
ما نال مَن خدم البـــلاد ‏ أجل من أجر الشهيـــد !

وإذا كان المؤمن الحسن الظن بربه يتخيل أن مظاهرة إلهية سماوية علوية قد قام بها ملائكة الرحمن فى ذلك اليوم ، لاستقبال هؤلاء الشهداء على أبواب جنات النعيم ، فإن أهل فلسطين قد ودعوا شهداءهم بما يليق بمكانتهم ، فقد كان يوم الثلاثاء ١٧ يونيه سنة ١٩٣٠ يوماً مشهوداً فى فلسطين ، فقد علم أبناؤها بالساعات الثلاث التى سيعدم فيها الشهداء ، فتعالت أصوات المودعين فوق المآذن فى صباح ذلك اليوم تستنزل الرحمات على الشهداء الأوفياء ، بل قرعت الأجراس فى الكنائس حداداً عليهم ، وخفقت قلوب الرجال والنساء عند مصرع هؤلاء الشهداء ، وأخذت الجموع تردد النشيد الثائر : « يا ظلام السجن خيم » ، وكلما دقت الساعة دقاتها إيذاناً بإعدام شهيد وقفت الجماهير خاشعة داعية ، تودع هؤلاء الشهداء بالإجلال والإكبار ، وتستنزل اللعنات على الطغاة المجرمين .

وهكذا كان العمل الفدائى فى فلسطين ـــ خلال ما يقرب

من نصف قرن مضى — هو التعبير الصادق العميق عن البطولة المستكنة فى صدور أبناء هذه الأمة المؤمنة، من أمثال فؤاد حجازى ، وعطا الزير ، ومحمد جمجوم ، الذين يجب أن تنقش أسماؤهم على صفحات الصدور ، ليكونوا مع أمثالهم قدوة لغيرهم ، وليكونوا برهاناً على أن هذه الأمة لا تعقم ، بل الخير باق فيها إلى ما شاء الله[1] .

---

(١) ضم كتاب « جهاد شعب فلسطين » للأستاذ صالح مسعود أبو بصير كثيراً من أنباء الفدائيين الفلسطينيين .

الشيخ المجاهد
عز الدين القسام

كنتُ ذات يوم أتحدث إلى مجموعة من الشباب عن واجبهم نحو قضية فلسطين المغتصبة ، وإزالة احتلال الصهيونية للوطن العربي ، وكنت أقول لهم : إنكم معقد الأمل وموطن الرجاء .

وبعد انتهاء الحديث أقبل عليّ شاب ، وقال لي في غضب وانفعال :

إن القرآن يقول : [يا أيُّها الَّذِينَ آمنُوا لِم تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ] ، وأنت قد أكدت الحديث عن التضحية والجهاد والفداء ، فهل أديت واجب الجندية ؟

قلت له : لا ، لأنهم أعفوني منها حين بلغت سنها ، بحجة أنني كنت حافظاً للقرآن الكريم ، وطالب علم ديني في الأزهر الشريف ، ولعلهم كانوا يستندون في ذلك إلى قول الله تعالى :

[وما كان المؤْمنون لِينفِرُوا كافَّةً ، فلولا نَفَرَ من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ، لِيَتَفَقَّهُوا في الدين ، ولِيُنْذِروا قومَهم إذا رَجَعُوا إليهم لعلَّهم يَحْذَرون] .

فعاد الشاب المنفعل يقول : ولماذا لا تحمل السلاح الآن ، وتدخل الميدان لتكون قدوة ؟

فحاولت الاعتذار إليه بقولى : إن ذراعى اليمنى كسرت مرتين ، وفيها خلل والتواء لا تحسن معه استعمال السلاح .

فقال فى ضيق : على كل حال ، الذى أعرفه أن صفحات الجهاد الميدانى والعمل الفدائى فى تاريخ فلسطين ، تخلو من ذكر أحد من العلماء .

وهنا تنفست الصعداء ، وقلت له بهدوء : يا بنى ، لقد عرفت شيئاً ، وغابت عنك أشياء ، فإن أول من نظم العمل الفدائى فى النضال الفلسطينى ضد الصهيونية والإنجليز هو الشهيد المرحوم : الشيخ عز الدين القسام أحد علماء المسلمين .

فدهش الفتى وقال : هذا اسم لم أسمع به قبل اليوم .

قلت : أستطيع أن أسمعك عنه بعض الحديث :

كان الشيخ عز الدين القسام أحد علماء الإسلام فى بلاد الشام ، واشترك فى الثورة العربية التى قامت بها سورية ضد الفرنسيين المحتلين ، وجاهد فيها بقدر ما استطاع ، وحين وقفت هذه الثورة لم يجد القسام لنفسه مكاناً ملائماً فى سورية ، فانتقل إلى « حيفا » فى فلسطين ، وهو يؤمن بأن فلسطين هى القسم الجنوبى من سورية ، لأن الشام فى الأصل يتكون من سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن .

وكان رجلا عالماً يجيد الخطابة والتدريس والتوجيه ، فنظم دروساً دينية فى مسجد حيفا ، ولكنه لم يكن يحصر دروسه فى مسائل فقهية مألوفة ، بل كانت دروسه فى الغالب استعراضاً

لمواقف البطولة فى الإسلام ، وحثًّا على الجهاد العملى والقتال الصادق ضد المحتلين من الإنجليز واليهود .

وكان للشيخ عز الدين القسام « لازمة » يختم بها دروسه ، وهى ترديده لقول الله تبارك وتعالى مشيراً إلى أعداء الله وأعداء رسوله : [ومن يَتَوَلَّهم منكم فإنَّه مِنْهُمْ] . وهو يذكِّر بقول الله تعالى : [إنَّما يَنْهَاكُم اللهُ عنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِى الدِّين وأَخْرَجُوكم مِنْ دِيارِكم ، وظَاهَرُوا عَلى إخْراجِكُم أَن تَوَلَّوهُم ، ومن يَتَوَلَّهم فأُولئِكَ هم الظَّالِمُون] .

وكثر رواد هذه الدروس التى يلقيها الشيخ عز الدين القسام باسم الدين ، داخل بيت من بيوت الله ، هو مسجد حيفا بفلسطين ، وكانت هذه الدروس تفعل فعل السحر فى نفوس مستمعيها ، فهى تثيرهم ، وتحرك عواطف النضال وحب الاستشهاد فى نفوسهم ، وأثمرت هذه الدروس ثمراتها ، فبدأ فريق من أبناء فلسطين يستجيبون لتوجيهات الشيخ العالم ، ويطبقون نصائحه فى الجهاد .

ومنذ أوائل سنة ١٩٣٥ م أخذت نتائج تلك الاستجابة تظهر فى المثلث العربى الذى تكوّنه البلاد الثلاث : جنين — نابلس — طولكرم . حيث أخذ هؤلاء الأبطال يقومون بنسف القطارات ، ومهاجمة المعسكرات الإنجليزية واليهودية ، واغتيال الضباط الإنجليز ، وقتل أى خائن يتنكر لعروبته ، ويتعاون مع المحتلين المجرمين .

وكانت أعمال هؤلاء الأبطال تتم فى سرية عميقة وتنظيم دقيق ،ومع ذلك أخذت تشعل نار الحماس والإقدام فى نفوس أبناء فلسطين ، فتكاثر عدد المنضمين إلى حركة الشيخ القسام التى كان يمسك بزمامها من وراء العمود الذى يجلس إليه للتدريس فى مسجد حيفا ، ولم تعلن هذه الحركة الفدائية الثائرة عن نفسها إلا فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩٣٥ .

وتطلع الشيخ القسام فرأى أن عمله قد أثمر ، وأن زرعه قد أينع ، وأن كلماته قد صنعت ما تصنع النار القوية فى صهر المعادن ، وهنا سأل الشيخ الداعية نفسه هذا السؤال :

أيليق بك أن تقول للناس ما لا تلتزمه وأنت قادر عليه ، وأن تدفعهم إلى مجال نضال خطير ولا تسبقهم إليه ؟ أيكون تلاميذك هناك فى الميدان ، يلاقون المتاعب والمصاعب ، ويتعرضون لمشاق الجهاد حتى الاستشهاد ، بتوجيه منك وإرشاد ، وأنت هنا يا عز الدين تكتفى بالكلام ، وتقنع بأن تقبع فى المسجد خلف عمود من أعمدته ، وأنت قادر على حمل السلاح؟ إن هذا لا يليق بك يا داعية العزة والكرامة !

وأعلن الشيخ القسام بين خلصائه أنه سينتقل من معبد المسجد إلى معبد الميدان ،وأنه سينضم عمليًّا إلى صفوف المجاهدين ليقودهم هناك ، وتحولت ثورة القسام ورفاقه إلى حركة عصيان مسلح ضد حكومة الانتداب الإنجليزية واليهود ٥

وارتعدت فرائص الإنجليز حين سمعوا ذلك ، فجعلوا كل همهم أن يتخلصوا من الشيخ القسام العقل المفكر المدبر للثورة ، فجمعوا عدداً ضخماً من جنودهم ، وحاصروه مع رفاقه فى غابة على مقربة من « جنين » . وجاهد الأبطال جهاد الصدق . وقاتلوا فى ثبات حتى الموت . ونال الشيخ القسام نعمة الشهادة مع فريق من زملائه ، فى اليوم الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، وكان استشهادهم سبباً فى اندلاع ثورة كبرى فى أرض فلسطين . ورثاه شاعر عربى فقال :

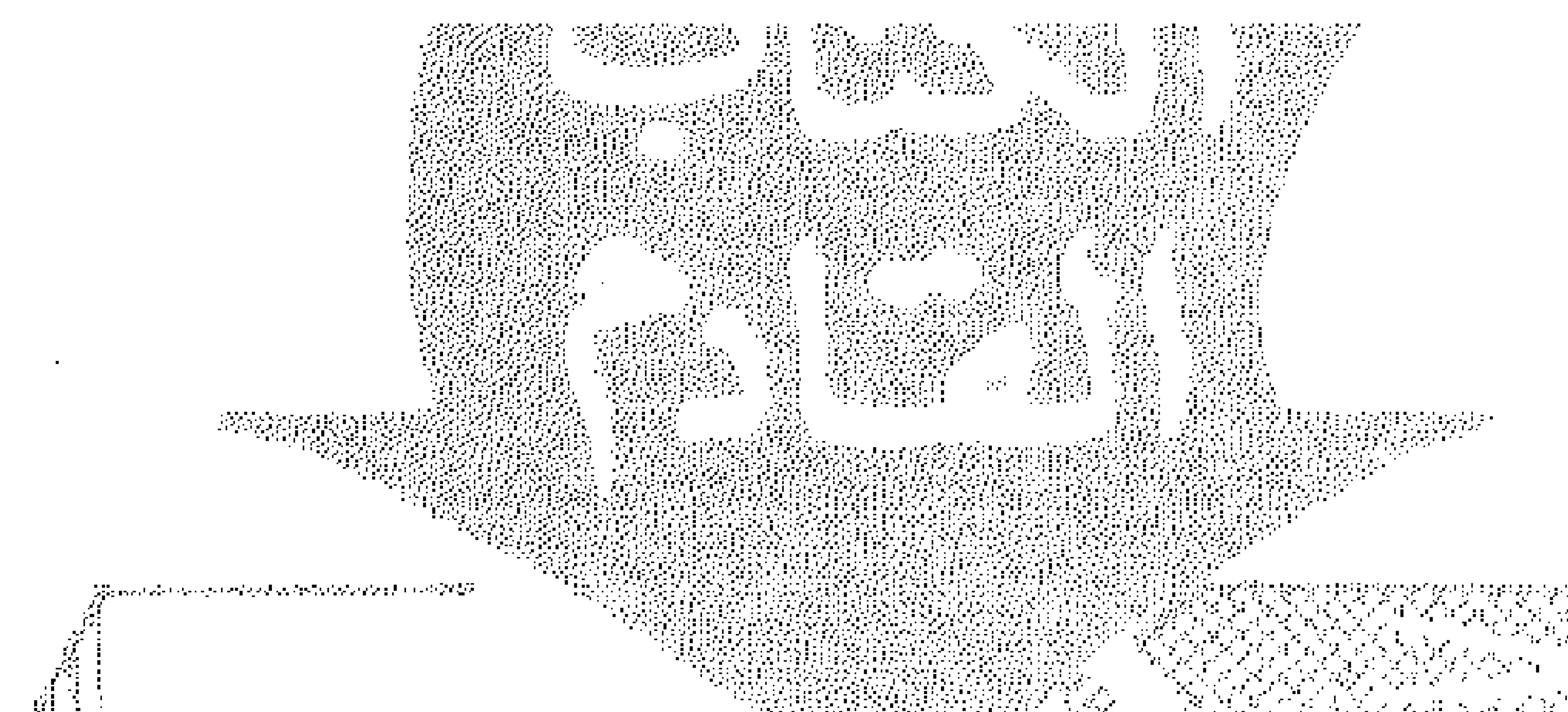
أولت عمامتك العمائم كلها ... شرفا تقصّر عنده التيجان
إن الزعامة والطريق مخوفة ... غير الزعامة والطريق أمان
يا رهط عز الدين حسبك نعمة ... فى الخلد، لا عنت ولا أحزان
شهداء بدر والبقيع تهللت ... فرحاً، وهشّ مرحّباً رضوان!

ثم . . . كان معاوية يقول للناس : « أيها الناس لا يمنعنكم سوء ما تعلمون عنا أن تعملوا بأحسن ما تسمعون منا » . وكان خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز يقول : « لو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يُحكم أمر نفسه ، ويكمل الذى خُلق له من عبادة ربه ، إذن لتواكل الناس الخير ، ولرُفع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقل الواعظون والساعون بالنصيحة فى الأرض » !

ورحم الله عبداً سمع فاتعظ ، وقدر فاستجاب !

الفهرس

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩



أعترف إليك

مجموعة قصصية

أحمد فؤاد تيمور